بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴿١﴾ ﴾

جاء فى المنتخب: [يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى أوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها، وخلق منهما رجالاً كثيراً ونساء، فأنتم جميعًا تنتهون إلى تلك النفس الواحدة، واتقوا الله الذى تستعينون به فى كل ما تحتاجون، ويسأل باسمه بعضكم بعضًا، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها قريبها وبعيدها، إن الله دائم الرقابة عليكم، لا تخفى عليه خافية من أموركم، ويجازيكم عليها].

وقالت أكثر التفاسير: إن النفس الواحدة هى آدم، وخلق الله حواء منها. وهذا المعنى موجود بالحرف فى العهد القديم من الكتاب المقدس، سفر التكوين[1].

***

(١) ثم قال الرب الإله: ليس مستحسنًا أن يبقى آدم وحيدًا. سأصنع له معينًا مشابهًا له . . . فأوقع الرب الإله آدم فى نوم عميق، ثم تناول ضلعًا من أضلاعه وسد مكانها باللحم، وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها إلى آدم . فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى ـ ٢ : ١٨ ـ ٢٣ سفر التكوين، ورأى المسيحيون الأصوليون فى الولايات المتحدة أن ذلك معناه أن الله خلقها لتساعد آدم ولإشباع حاجاته، وأن فى ذلك نوعًا من ملكية آدم لحواء ـ *أصول التطرف: اليمين المسيحىّ فى الولايات المتحدة* - من منشورات نيو بوسطن بوكس، تحرير كيمبرلى بلاكر، ونشرته مكتبة الشروق الدولية فى طبعتين، انظر صفحة ١٥٤ .

﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

الخطاب موجه لكل ولي أو وصى على اليتيم، ولأولى الأمر فى المجتمع وفى الأمة الإسلامية ﴿آتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ حين بلوغ السن المناسب، ردوا عليهم أموالهم وممتلكاتهم التى كنتم أوصياء عليها ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ لا تأخذوا أموالهم ظلمًا؛ لأن ذلك كسب خبيث ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ لا تخلطوا أموالهم بأموالكم وتأكلوا أموالهم ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا﴾ إنه ذنب كبير.

* * *

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ وإن خفتم أن لا تعدلوا ﴿فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فى يتامى النساء. فسرت أم المؤمنين عائشة ذلك «باليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط (أن يعدل) فى صداقها (أى مهرها) فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيره من الرجال، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سننهن فى الصداق (أى يعطيها مثل أعلى ما تأخذ نظيراتها أو مثيلاتها)، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن» رواه البخارى ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى من غير اليتامى المذكورات ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ وشرح عروة بن الزبير، راوى الحديث عن عائشة، قائلاً: أى اتركوهن، فقد أحللت لكم أربعًا غيرهن[1] ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ إذا خشيتم عدم إمكان العدل وما يتبعه من ظلم قد تعانيه إحداهن فاكتفوا

(١) جاء الإسلام ومع بعض الرجال أربع زوجات أو أكثر أو أقل، فوضع الإسلام حدًا لا يتجاوزه المسلم هو أربع، ثم قيده بإمكانية العدل، وإلا فواحدة، والعدل المطلوب هو العدل فى المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة، أما العدل فى مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس فعلى المسلم أن يبذل كل جهده فى تهذيبها والعدل فيها، وهكذا جاء الإسلام لا ليطلق حرية الرجل فى الزواج، ولكن ليحدد التعدد بالعدل وإلا امتنعت الرخصة المعطاة، والإسلام أراد مواجهة أحوال مختلف المجتمعات فى مختلف الأحوال والأوضاع، فحين يزداد عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال الصالحين للزواج، خصوصًا عقب الحروب، وفى حالة تدهور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، حين يصبح إنشاء الأسرة عبئًا لا يستطيعه الكثير من الشباب؛ مثل أيامنا الحالية، وقد تمرض الزوجة بمرض عضال فلا تستطيع القيام بواجبات الزوجية، وقد تكون الزوجة عاقرًا ويريد الزوج الإنجاب، فأباح له الشرع الزواج بأخرى مع احتفاظ الزوجة الأولى بزوجها وحياتها، وأعطى الشرع للزوجة حق اشتراط عدم التعدد قبل الزواج، وحقها فى رفضه بعد ذلك، وأمر بحسن معاشرة الزوجة حتى قال الرسول (ﷺ) «خيركم خيركم=

= لأهله»، ويعمل الإسلام بذلك على سد كل منافذ الزنا والعلاقات غير الشرعية. وقد يخفى على الكثيرين أن الإسلام هو أول دين يحدد عدد الزوجات، ففى اليهودية ليس هناك أى تحديد لعدد الزوجات، وقد جاء فى الكتاب المقدس، العهد القديم، أن نبى الله داود (ﷺ) كان له عدة زوجات، ونبى الله سليمان (ﷺ) كان له ألف زوجة ومحظية، وقبلهما نبى الله يعقوب (ﷺ) كان له أربع زوجات، أختان وجاريتاهما. وجاء فى كتاب *المرأة فى الشريعة اليهودية*:

* يمكن للرجل أن يتخذ عدة زوجات- صفحة ٤٩.
* يحدد التلمود قيدًا واحدًا على عدد الزوجات، فى حالة أن يكون الرجل ملكًا، فلا يسمح للملك أن يتخذ أكثر من ثمانى عشرة زوجة (١٨ زوجة)؛ لأنه إذا زاد العدد عن ذلك فلن يستطيع القيام بواجبات المُلك ـ صفحة ٤٩. ـ مؤلفة الكتاب راشيل بيال، المولودة فى كيبوتز كفر روبن، وحصلت على الماچستير فى التاريخ اليهودى من جامعة كاليفورنيا، وماچستير آخر فى العمل الاجتماعى من جامعة يشيفا، والكتاب من منشورات شوكن بوكس التابعة لراندوم هاوس، نيويورك، الولايات المتحدة.

وقالت الموسوعة اليهودية القياسية الجديدة:

منع الرابای جيرشوم تعدد الزوجات بين اليهود الإشكناز (فى أوروبا) فى حوالى عام ١٠٠٠ م. وفى إسرائيل، يفرض القانون الزوجة الواحدة، ولكن حالات تعدد الزوجات القائمة (قبل القانون) معترف بها ـ صفحة ٧٦١، والموسوعة من منشورات فاكتس أون فايل، نيويورك، أكسفورد الطبعة السابعة عام ١٩٩٢.

كذلك ليس هناك نص صريح فى الأناجيل الأربعة يحدد عدد الزوجات، بل هناك مثل ضربه المسيح (ﷺ) عن العريس ذى العشر عذارى (متى: ٢٥: ١-١٣)، وقد قال المسيح (ﷺ) فى الإنجيل: «ما جئت لأنقض الناموس» أى شريعة موسى، التى لم تضع أى حدود لعدد الزوجات. أما تحريم التعدد عند المسيحيين، فقد فرضه آباء الكنيسة، كما فرضوا عدم زواج القسس، الأمر الذى جاء ضد الطبيعة البشرية، ولم تأمر به الأناجيل، وبالطبع لم يستطيعوا مراعاته، وظهرت الممارسات غير الشرعية لديهم منذ ذلك الحين وحتى اليوم. وقد وضع آباء الكنيسة الأوائل بصماتهم الواضحة على كثير من شئون الحياة المسيحية، فقد كرهوا كل متع الدنيا، حتى الحلال منها، سواء كان طعامًا طيبًا، أو ملبسًا جميلاً، أو أموالاً حلالاً من تجارة، وحتى الزواج، رأوا من الأفضل عدمه، ورأى القديس چيروم أن ممارسة الجنس بين الرجل وزوجته بقصد المتعة خطيئة. وجدير بالذكر أن آباء الكنيسة الكاثوليكية الأوائل منعوا أى مسيحى من أن يقتنى الكتاب المقدس، حتى يبقى الدين حكرًا عليهم، فهم مفتاحه ومصباحه، ومن يريد أن يعرف يلجأ إليهم، واستمر ذلك المنع وعقاب من يجدون لديه نسخة من كتابه المقدس حتى جاء مارتن لوثر ـ الذى قال إنه لا يوجد فى الكتاب المقدس أى نص يحدد عدد الزوجات ـ فى مطلع القرن السادس عشر، وسجل اعتراضاته على الكنيسة، وبدأت ثورته الإصلاحية، وقد أكد مارتن لوثر فى: Wittenburg Deliberation حق الملك فيليپ أوف هيسه فى اتخاذ زوجة ثانية، وشاركه فى ذلك القول ميلانكتون وبوسر وأربع شخصيات إصلاحية أخرى، وأقر لوثر ممسكًا بالكتاب المقدس بأنه لا يحرم على أى رجل الزواج بزوجة ثانية، وأن ذلك لا يُعد مخالفًا للنصوص المقدسة. ولم يتيسر لأحد فى أوروبا اقتناء كتابه المقدس بدون خوف من عقاب إلا فى حوالى منتصف القرن السادس عشر. وإذا تصفحنا كتاب البابا شنوده *شريعة الزوجة الواحدة فى المسيحية*، لوجدنا فى صفحته الأولى فى المقدمة التى عنوانها: مصادر التشريع والمسيحية، يبدأ بأن المصدر الأول الأساسى فى المسيحية هو الكتاب المقدس بعهديه. ثم هناك التقاليد والإجماع العام، ثم يقول فى الفقرة الثانية: وهناك أيضًا القوانين الكنسية، ويفصلها فى الفقرة الثالثة: [وكل هذه القوانين التى وضعها الرسل والمجامع والآباء إنما كانت بناء على السلطان الكهنوتى الذى منحه السيد المسيح بقوله: «الحق أقول لكم، كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطًا فى السماء، وكل=

بواحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعنى نظام الإماء الذى كان شائعًا فى العرب، وفى العالم، قبل ظهور الإسلام، ثم تآكل فى العالم الإسلامى بعد تجفيف الإسلام لمنابعه ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ ذلك أقرب ألا تظلموا وتجوروا. وقال الشافعى: أقرب ألا تكثر عيالكم، بمعنى ألا تكثر نفقاتكم ولا تستطيعو القيام بها. والمعنيان مطلوبان.

= ما تحلونه على الأرض يكون قد حل فى السماء» [متى ١٨: ١٨]]. بهذا النص فى الإنجيل، اكتسب الباباوات سلطة التحليل والتحريم، وغفران الذنوب، أو طرد من يرون من المسيحية، وإدخال المسيحيين الجنة، أو حرمانهم منها، أو من الخلاص، ورغم أن كتاب البابا يقع فى أكثر من مائة صفحة، فهو لم يورد نصًا واحدًا واضحًا صريحًا من المسيح يمنع اتخاذ أكثر من زوجة، بل يمكنك التقاط بعض نصوص مثل: من أجل هذا، قال العلامة ترتليا نوس: كل واحد يعلم الآن أنه قد سمح لآبائنا ـ حتى رؤساء الآباء أنفسهم - ليس فقط بالزواج، وإنما بتعدد الزوجات أيضًا، بل إنهم احتفظوا كذلك بسرارى... كان من الضرورى فى الأزمنة الماضية أن تقوم ممارسات ينبغى إبطالها فيما بعد أو تعديلها] ومارس المسيحيون الأوائل التعدد، ولم تفرض الكنيسة الزوجة الواحدة إلا بعد المسيح بعدة قرون، وهو تقليد فرضته الكنيسة كما فرضت العزوبية، وكما حرمت كنيسة روما على المسيحيين اقتناء الكتاب المقدس. وقد جاء فى كتاب: *بعد أن أصبح تعدد الزوجات خطيئة After Polygamy Was Made A Sin* من منشورات روتليدج وكيجان آند پول ـ لندن:

* كان التعدد يُمارس فى العصور المسيحية الأولى، وأباطرة مسيحيون، لم يكن لهم عدة زوجات فحسب، بل إنهم أجازوا التعدد: مثل قالنتينيان، ولوثير، وشارلمان، وپيپن، والإمبراطور باربا روسا كان لهم عدة زوجات. بينما لم يُعرف الزواج الأحادى إلا بإصرار الكنيسة على فرضه فى القرن السابع الميلادى، شأنه شأن العزوبية التى ابتدعها رجال الدين دون حث عليها من الإنجيل.
* لم يظهر أى حظر للتعدد فى أى بقعة من بقاع العالم إلا فى ظل قانون جستنيان فى القرن السادس الميلادى.
* فى ٢٣ يوليه (١٥٣٤) أعلنت مدينة مونستر الألمانية أن التعدد هو الصورة المثالية للزواج.
* فى الاجتماع الرابع والعشرين لمجمع ترنت (١٥٦٣) تم لعن التعدد، ويعاقب فاعلوه بعقوبة الحرمان الكنسى.
* فى ١٤ فبراير (١٦٥٠)، قضى مجمع فرانكونيا ـ نورنبرج، بموافقة رؤساء أساقفة بامبرج وڤورتسبرج، بتشجيع القساوسة على الزواج، والسماح لأى رجل أن يتزوج بزوجتين على مدار العشرة أعوام اللاحقة.
* قال چون لايدن: عدة زوجات أفضل من عدة عاهرات.
* الزوجة الواحدة عادة أخذها المسيحيون من الرومان (الذين اعتادوا اتخاذ عدة محظيات بجوار الزوجة).
* أباح فردريك الثانى ملك جنوب إيطاليا تعدد الزوجات فى القرن الثالث عشر.
* ذكر الكتاب أمثلة من شخصيات أوروپية هامة، رأت أن الكتاب المقدس بعهديه لم يمنع التعدد، ومنها: برناردينو أو شينو ـ شوپنهاور ـ چون ميلتون (والذى ضرب مثلاً صارخًا مروعًا باستشهاده بالآيات ١-١٠ من الإصحاح ٢٣ سفر حزقيال) ـ إسحاق نيوتن (الذى كان موحدًا).
* كانت ولاية يوتا من أوائل الولايات الأمريكية التى منحت المرأة حق التصويت فى (١٨٧٠)، ذلك أن حكومة الولاية ـ المناهضة للمورمون ـ اعتقدت أن النساء يعانين فى ظل التعدد وبالسماح لهن بالتصويت فيسقمن بانتخاب المرشح المناهض للمورمونية ـ التى تبيح التعدد ـ لكن العجيب أن النساء صوتن للمرشحين المورمون، فما كان من الحكومة إلا أن حرمتهن من التصويت فى (١٨٨٨). ويمارس المورمون فى الولايات المتحدة تعدد الزوجات حتى اليوم.

وعدَّد الطبرى أقوال بعض المفسرين، ثم قال: [وأولى الأقوال من قال: وإن خفتم، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن، من واحدة إلى الأربع. فإن خفتم الجور فى الواحدة أيضًا، فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم، فإنه أحرى أن لا تجوروا عليهن] وقال الزمخشرى: [إن خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى، فخافوا أيضًا ترك العدل بين النساء، فقللوا عدد المنكوحات. وقيل: كانوا لا يتحرجون من الزنا وهم يتحرجون من ولاية اليتامى، فقيل: إن خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنا، فانكحوا ما حل لكم من النساء]، وقال المراغى: [وإن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ألا تتزوجوا بها، فإن الله جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا].

***

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾

الصداق هو المهر الذى أمر به الشرع الإسلامى، وهو مبلغ من المال يعطى للعروس ﴿نِحْلَةً﴾ عطية مفروضة تطيب بها نفسها، وقد يعينها فى لوازم هى فى حاجة إليها، ولها مطلق الحرية فى التصرف فيه، فإن تنازلن لكم عن جزء من المهر عن طيب خاطر لأى سبب، فانتفعوا به طيبًا محمود العاقبة.

***

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

لا تعطوا السفيه، وهو كل من لا يمكنه حفظ ماله، سواء لأنه يتيم صغير فى السن، أو غير ذلك ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ ورغم أنها أموال اليتامى، أو غيرهم من الذين يستحقون الولاية المالية، إلا أن الله أضافها للولى ليحمله مسئولية المحافظة على مال اليتيم أوالسفيه، وقال آخرون: بل المقصود أموال الولاة أو الناس عمومًا، وليس أموال اليتامى والسفهاء ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ التى جعلكم الله قائمين عليها، مسئولين بها عن الإنفاق على اليتيم أو السفيه، أما من قال من المفسرين إنها أموال الولاة، فقال إن معنى ﴿قِيَامًا﴾ أن المال هو قوام الحياة، أو تقوم به حياتكم ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ ارزقوهم منها، وقال آخرون: المقصود اجعلوها مصدرًا لرزقهم، بالتجارة فيها أو استثمارها وما إلى ذلك، أى تتاجروا وتربحوا حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ طيبًا مفيدًا لهم.

***

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ﴾ اختبروا عقولهم وإدراكهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ حتى إذا بلغوا سن الرشد وإمكانية الزواج ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ فإن أحسستم وبان لكم رشدهم ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ من غير تأجيل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا ﴾ ولا تنفقوا أموالهم مسرفين مبذرين ﴿ وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾ ومسارعين فى إنفاقها قبل أن يكبر اليتيم ويسترد ماله ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ فليعفَّ الغنى نفسه ويتنزه عن أكل مال اليتيم ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أما الفقير الذى يقوم على أمر اليتيم، فليأخذ من ماله بقدر الحاجات الضرورية مقابل سعيه للاتجار فى ماله وخدمته له ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أشهدوا الشهود على قبضهم أموالهم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ فالإشهاد هو من قبيل سد الذرائع عن النسيان وعن الظلم، أى منع ما يؤدى إليهما، والله عنده الحساب الوافى.

* * *

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾

للرجال وللنساء نصيب فى ميراث الوالدين والأقربين، وهذه الأنصبة مفروضة، سواء أكان الميراث كثيرًا أو قليلاً. وأثناء تقسيم التركة، إذا حضر بعض الأقارب من غير الورثة، أو بعض الأيتام والمساكين، فأعطوهم من التركة تطييبًا لنفوسهم ونزعًا للحسد من قلوبهم مع لين الكلام، وهذا عند جمهور الفقهاء محمول على الندب، أى أنه تطوع، لا على الوجوب ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ قولاً طيبًا رقيقًا.

* * *

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

تنذر الآيتان من يظلم اليتيم ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا ﴾ فليتق الله من عنده أبناء صغار أو فقراء ﴿ خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ يخافون عليهم أن يُظلموا، وليعلم أن ما يفعله فى أبناء غيره؛ قد يأتى اليوم الذى يُرد له فى أبنائه. إن الذين يستحلون أكل مال اليتيم ظلمًا

وعدوانًا ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ جاء فى الحديث الشريف «البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت؛ كما تدين تدان» رواه عبد الرزاق.

* * *

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ فنصيب كل ذكر من أولاد المتوفى كنصيب اثنتين من البنات، والعلة واضحة؛ فواجبات الذكر المالية أكبر من واجبات المرأة طبقًا للشريعة ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ إن ترك المتوفى ثلاث بنات أو أكثر ليس معهن ذكر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ولم تذكر الآية حالة البنتين، وجمهور الفقهاء أنهما ترثان الثلثين، إلا رواية شاذة عن ابن عباس النصف فقط كالواحدة، ونقل سيد سابق عن ابن رشد: [وقد قيل: إن المشهور عن ابن عباس مثل قول الجمهور]. فإن كانت الأنثى واحدة ليس معها أخ ولا أخت ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ مما ترك، ثم تنتقل الآيات للأبوين ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يأخذ كلّ من الأب والأم السدس، إن كان للمتوفى ولد ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ والباقى للأب ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ والباقى للأب والإخوة، وتعطى كل هذه الأنصبة بعد أداء الدين وتنفيذ ما وصى به فى حدود ما أجاز الشرع وهو الثلث ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وقد قدم ذكر الوصية على الدين لفظًا، والشرع إيفاء الدين قبل تنفيذ الوصايا، ولذلك تفسيرات عديدة، منها أن حرص الورثة على أداء الدين يفوق حرصهم على تنفيذ الوصية، فلذلك قدمها الله، ومنها أن الدين سيجد من يسعى لتحصيله، أما الوصية فلا ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ لا تدرون أى الأبناء أقرب لكم نفعًا ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ ذلك فرضه الله عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بما يصلحكم حكيمًا فى شرعه(١).

* * *

(١) كما طعن كثير من اليهود والمسيحيين فى إباحة الإسلام الزواج من أربعة، وبشروط، برغم أن الكتاب المقدس بعهديه (القديم لليهود والمسيحيين، والجديد للمسيحيين) ليس به نص واحد يمنع التعدد، وبه روايات عن أنبياء كثيرين تزوجوا أربعة وأكثر، وبالعهد الجديد مثل العريس ذى العشرة عذارى، طعن أيضًا كثير من اليهود والمسيحيين فى نظام المواريث الإسلامى، وكثيرًا ما يبدأ طعنهم بأن المرأة مظلومة؛ لأنهـا ترث نصف الرجل. =

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾

للأزواج نصف ما تركت الزوجات إن لم يكن لهن أولاد، فإن تركت الزوجة ابنًا أو ابنة نزل نصيب الزوج إلى الربع، وللزوجات ربع ما ترك الأزواج إن لم يكن لهم أولاد، فإن كان للزوج ابن أو ابنة، هبط نصيب الزوجة إلى الثمن، وذلك بعد استيفاء الدين والوصية، وسواء في الربع أو الثمن فالزوجة والزوجتان والثلاث والأربع يشتركن فيه ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾ والكلالة تعنى من لا ولد له ولا والد ﴿ أَوِ امْرَأَةٌ ﴾ كلالة أيضًا ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ أى الأخ والأخت من الأم؛ لأن الإخوة الأشقاء أو لأب سيأتى ميراثهم فى آخر السورة ﴿ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ أى من واحد ﴿ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ يستوى فى ذلك الذكر والأنثى؛ لأن لفظ الشريك يقتضى التسوية ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ بعد استيفاء الدين والوصية ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ كل هذه التعاليم أوصى بها الله عباده المؤمنين ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ والله عليم بالأصلح لعباده ﴿ حَلِيمٌ ﴾ على ذنوب عباده واغترارهم بمتاع الدنيا وبأنفسهم، ويظنون بعضهم أنه كان يمكن تقسيم المواريث بأفضل من ذلك، وأولئك حقًا الذين لا يعلمون(١).

* * *

= وبداية، فتلك حالة من حالات عديدة لنظام المواريث، ويقابلها، على سبيل المثال، الأم التى تركت بنتًا، وزوجًا، وأبًا، فالبنت ترث النصف، والزوج، أى الرجل والأب، يرث الربع، وأبو المتوفاة، أى الرجل جد الحفيدة، يرث السدس.

وفى اليهودية، ومن ثم المسيحية، يرث الابن الأكبر «نصيب اثنين من كل ما يملكه» ـ التثنية ٢١: ١٦، ١٧ ولا ترث البنات ولا الزوجة شيئًا على الإطلاق، فإذا لم يترك المتوفى سوى بنات، فإنهن يرثن، ولكن تنتقل ثرواتهن إلى أزواجهن بمجرد الزواج ـ العدد ٢٧: ١-١١، ٣٦: ١-٩. ويجوز للأب أن يبيع ابنته كأمة. والبكورية هامة جدًا فى التراث اليهودى، حتى إن الكتاب المقدس روى كيف خدعت رفقة زوجة إسحاق (عليه السلام) وأم يعقوب (عليه السلام) زوجها، واشترك معها يعقوب (عليه السلام) فى خداع أبيه ليسرق البركة! اقرأ ذلك فى سفر التكوين الإصحاح ٢٧: ١-٤٠.

وفى عالم اليوم الغربى، تسمع عن أب أو أم توفى وترك كل ثروته لقطة أو كلب، أو ما إلى ذلك، ولا يطعن أحد، ويلتزم الكارهون للإسلام الصمت الجميل.

(١) كانت المرأة الإنجليزية ـ بموجب القانون الإنجليزى العام ـ تفتقد الكيان القانونى فور زواجها، وتنتقل كافة ممتلكاتها لزوجها ويسقط حقها فى التصرف فيها، وفى التوقيع على أى مستندات قانونية ـ بل إن =

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾

تلك فرائض الله وأحكامه فى المواريث، لا يجوز تعديها، ومن يطع الله ورسوله يثيبه الخلود فى الجنة، ومن يعصى الله ورسوله، ويتعدى حدود الله، يعاقبه بجهنم وعذابها المهين.

* * *

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾

قال محمد الغزالى: [ونلحظ أنه ـ قبل الحديث عن حسن العشرة ـ ذكرت جريمتان من الجرائم الاجتماعية السيئة: الأولى السحاق ـ وهو ممارسة الأنثى الجنس مع الأنثى، والأخرى اللواط وهو ممارسة الذكر الجنس مع الذكر، ومحاربة الجريمتين حماية حقيقية للأسرة، وحراسة لجوهرها الطاهر، فمن الخطأ حساب الكلام مقحمًا على السياق] ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾ أى السحاق ﴿ مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ من المسلمات ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾ لا بد من شهادة أربعة شهود رأوا بوضوح لا لبس فيه ﴿ فَإِن شَهِدُوا ﴾ أى عليهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ أى يحبسن فيها منعًا لانتشار الأذى ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ أو يفتح الله لهن طريقًا حلالًا بالتوبة والزواج ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ ﴾ من الرجال ﴿ فَآذُوهُمَا ﴾ بالسب والتعيير لإيلامهما حتى يفيقا ويعودا إلى ربهما ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ فإن رجعا عن تلك الفاحشة، كفوا عن إيذائهما؛ لأن الله ﴿ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

* * *

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾

جاء فى الحديث «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» رواه بن ماجة، و «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» رواه أحمد والترمذى وابن ماجة.

= حصلت على أى أموال من كسبها الخاص ـ بعد الزواج ـ كانت تلك الأموال تنتقل مباشرة إلى زوجها، وبدأ انحسار ذلك فى الولايات المتحدة فى ١٨٣٩، بتشريع صدر عن ولاية الميسيسبى، ثم بدأت بقية الولايات فى اتباعه حتى ثمانينيات القرن التاسع عشر، وبدأ انحساره فى إنجلترا فى عام ١٨٥٧ ـ موسوعة بريتانيكا.

وبين الله أن ﴿التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، فإذا عرفوا أن ذلك سوء ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ يتوبون فور معرفتهم ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لأنه عليم بهم حكيم فى حكمه، ولايقبل توبة الذين يذنبون فإذا ما بلغوا حشرجة الموت سارعوا بالتوبة والاستغفار والندم. أما الذين يموتون وهم كفار لا يؤمنون بالله، فلهم عذاب أليم مهما استغفروا وتابوا يوم الحساب.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

قال ابن عباس: [كانوا فى الجاهلية إذا مات الزوج، أصبح أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾]، والعضل هو التضييق والشدة حتى يصل بها الحال إلى التنازل عن كل حقوقها مقابل طلاقها، إلا فى حالة واحدة وهى ﴿أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ كالزنا أو النشوز الذى هو تكبرها على الزوج وامتناعها عنه ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالتى هى أحسن فى الأقوال والأفعال، وفى الحديث: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى» رواه الترمذى وابن ماجة ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فلا تتسرع أيها الزوج، فالحياة الزوجية عرضة لفترات من الفتور، ثم قد تعود المياه إلى مجاريها، وهكذا النفس البشرية، فلا تقدم على الطلاق لعل الله يرزقك منها الولد، أو لعلها أنسب الزوجات لك، ويأتى لك خير الله الكثير على يديها، والله أعلم[1].

* * *

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

(١) أحل الشرع الطلاق كحل أخير عند فقدان الأمل فى استمرار الحياة الزوجية، ونصح الزوجين بالمحاولة وإعادة المحاولة، وتوسيط الحكام العاقلين من الطرفين، قبل القدوم على الطلاق. ومنعت الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية الطلاق إلا لعلة الزنا، وتساهلت فيه اليهودية إلى أقصى الحدود.

وإذا أردتم طلاق زوجة للزواج بغيرها ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ﴾ كناية عن المال الكثير كمهر أو غيره ﴿ فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ لا قليلاً ولا كثيراً، فليس من حقكم ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا ﴾ أتأخذونه باطلاً ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وذنبًا واضحًا ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ كيف بالله عليكم تستحلون استرداد ما أعطيتموه بعد أن ارتبط الزوجان واختلطا بما لا يجاوزه ارتباط واختلاط من معاشرة وما إلى ذلك ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ وقد سبق أن أخذن منكم عهداً بحسن الصحبة والمعاشرة والمباشرة، فكيف تجحدون ذلك؟ وجاء فى الحديث «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم، إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» متفق عليه، والمقصود بعوان ضعيفات مثل الأسيرات.

* * *

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) ﴾

كان العرب فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة، جاء ابنه من غيرها فألقى ثوبه عليها، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فله أن يتزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقه الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئًا، وإن شاء عضلها وضارَّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت، أو تموت هى فيرثها، حتى جاء الإسلام فحرَّم هذا الظلم المبين ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ فما كان فى الماضى قبل الإسلام فإنه معفو عنه، فتلك ﴿ فَاحِشَةً ﴾ كبيرة من الكبائر ﴿ وَمَقْتًا ﴾ كراهية تزرعونها بينكم، ويكرهها الله ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾.

* * *

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ يحرم على المسلم الزواج من أمه وجدته لأمه أو أبيه ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ وكذلك حفيداتكم ﴿ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ من أم أو أب ﴿ وَعَمَّاتُكُمْ ﴾ وكذلك أخوات الأجداد ﴿ وَخَالَاتُكُمْ ﴾ وكذلك أخوات الجدات ﴿ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ وكذلك أولادهن ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ﴾ وفى الحديث «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» رواه البخارى ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ تحرم على الرجل المسلم حماته وأمها

﴿ وَرَبَائِبُكُمُ ﴾ ربيبة الرجل هى بنت زوجته من غيره ﴿ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ فى تربيتكم؛ إذا كن ﴿ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ والدخول بهن كناية عن الجماع، وقال أبو حنيفة ومالك، وفى قول للشافعي، وغيرهم: وأيضًا ما سبقه من مقومات كالقبلة واللمس بشهوة وما إلى ذلك ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فلا حرج عليكم أن تتزوجوا بنات خطيبات لم تدخلوا بهن، أو خطبتم امرأة فماتت قبل الدخول بها فلا حرج أن تطلبوا الزواج من بناتها، أو من عقد عليها ولم يدخل بها ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ﴾ جمع حليلة وهى زوجة الابن أو الحفيد ﴿ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ أى صلب الرجل ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ لا يحل لزوج أن يجمع بين أختين فى وقت واحد ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أى مضى فى الجاهلية؛ فإنه معفو عنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ عما مضى قبل الإسلام.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الخامس

سورة النساء

من الآية ٢٤ حتى الآية ١٤٧

obeikandl.com

obeikandl.com

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) ﴾

وحرم عليكم نكاح المتزوجات من النساء، فالمحصنة هنا هى المتزوجة، والكلمة تعنى أيضًا الحرائر ﴿ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من سبايا الحرب، بعد استبراء أرحامهن؛ لئلا تختلط الأنساب[1] ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ كتب الله تحريم ما سبق ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾

(١) قال المراغى: [حرم عليكم نكاح المتزوجات إلا ما ملكت الأيمان بالسبى فى حروب دينية تدافعون بها عن دينكم، وأزواجهن كفار فى دار الكفر، وقد رأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن، فحينئذ ينحل عقد زوجيتهن ويكنّ حلالاً لكم بالشروط المعروفة فى كتب الفقه.

وحكمة هذا أنه لما كان الغالب فى الحروب أن يُقْتَل بعض أزواجهن ويفرّ بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين، وكان من الواجب كفالة هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن ومنعهن من الفسق ـ كان من المصلحة لهن وللمجتمع أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر كافل يكفيها البحث عن الرزق أو بذل العرض، وفى هذا ما لا يخفى من الشقاء على النساء.

فإن رأى المسلمون أن من الخير أن تُرَدَّ السبايا إلى قومهن جاز لهم ذلك عملاً بقاعدة (درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح) فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا وحظوظ الملوك فلا يباح فيها السبى].

مسألة الرق هى من ضمن المسائل التى اعتاد المستشرقون، ومن ردد كلامهم، طعن الإسلام بها. وكما يغفل من يتكلم عن تعدد الزوجات فى الإسلام إظهار أن الإسلام هو الدين الإبراهيمى الوحيد الذى حدد الزوجات بأربع، يغفل من يتكلم فى الرق عن ذكر معالجة الإسلام للقضية، ومقارنتها بمعالجة اليهودية والمسيحية. ونذكر القارئ بأن الرق كان مؤسسة واسعة النفوذ وهائلة الاستخدام فى الإمبراطورية الرومانية وفى غيرها من الإمبراطوريات القديمة. ونقتبس من كتاب *أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا* فقرتين:

* ففيما يلى أفكار الكتاب المقدس فى القرن التاسع عشر (فى أمريكا): ألم يحتفظ آباء العهد القديم بالعبيد؟ ألم يلعن نوح ـ فور أن فاق من غيبوبة السكر ـ كنعان بن حام الذى انحدر منه الجنس الزنجى؟ ألم ينصح القديس بولس الخدم أن يتبعوا أسيادهم؟ وقال لعبد هارب أن يعود لسيده؟ ألم يلتزم المسيح الصمت فيما يخص هذا الموضوع، على الأقل كما أبلغ الإنجيل كلماته؟

* كان كثير من أصوليى القرن التاسع عشر يستشهدون بفقرات منه بسهولة (التكوين ٩ : ٢٥، الرسالة الأولى إلى تيمو ثاوس ٦ : ١-٢، الرسالة إلى تيطس ٢ : ٩-١٠، الرسالة إلى مؤمنى أفسس ٦ : ٥) للدفاع عن مؤسسة الرق، بل إن المؤتمر المعمدانى الجنوبى قد ظهر إلى حيز الوجود عام ١٨٤٥ (وهو الآن أكبر طائفة بروتستانتية فى أمريكا) تأييدًا للرق. =

وأحل لكم نكاح ما سواهن ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ تدفعوا لهن مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ متزوجين متعففين غير زناة ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ بزواجهن ﴿فَآتُوهُنَّ

= فلنعد لأصل الرق فى الكتاب المقدس:

جاء فى سفر التكوين تحت عنوان: لعن كنعان ومباركة سام: واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرمًا، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عرى أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجًا. فأخذ سام ويافث رداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا القهقرى إلى داخل الخيمة، وسترا عرى أبيهما من غير أن يستدبرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عريه. وعندما أفاق نوح من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير قال: «ليكن كنعان ملعونًا، وليكن عبد العبيد لإخوته». ثم قال: «تبارك الله إله سام. وليكن كنعان عبدًا له. ليوسع الله ليافث فيسكن فى خيام سام. وليكن كنعان عبدًا له».

تبين قصة يوسف وإخوته فى سفر التكوين أن القتل أو الاسترقاق هو جزاء من يسرق ـ الإصحاح ٤٤: ٩-١٠.

ثم نقرأ تحت عنوان أحكام مختصة بالعبيد: وهذه هى الأحكام التى تضعها أمامهم: إن اشتريت عبدًا عبرانيًا فليخدمك ست سنوات، وفى السنة السابعة تطلقه حرًا مجانًا وإذا اشتريته وهو أعزب يطلق وحده. وإن اشترتيه وهو بعل امرأة، تطلق زوجته معه. وإن وهبه مولاه زوجة وأنجبت له بنين وبنات، فإن زوجته وأولادها يكونون ملكًا لسيده، وهو يطلق وحده حرًا. لكن إن قال العبد: «أحب مولاى وزوجتى وأولادى، ولا أريد أن أخرج حرًا. يأخذه سيده إلى قضاة المدينة، ثم يقيمه لصق الباب أو قائمته، ويثقب أذنه بمخرز، فيصبح خادمًا له مدى الحياة. ولكن إذا باع رجل ابنته كأمة فإنها لا تطلق حرة كما يطلق العبد. ـ سفر الخروج ٢١: ١-١١.

وتبين الأحكام أن على مالك العبد تحريره بعد سبع سنوات، إلا إذا رفض العبد، وتبين أيضًا أنه يمكن للأب أن يبيع ابنته كأمه. ثم يؤكد سفر التثنية الأمر بتحرير العبيد بعد سبع سنوات ـ الإصحاح ١٥: ١٢-١٧، وتأمر الآيات بتزويد العبد «مما باركك الرب إلهك»، وتستثنى من لا يريد التحرر من العبيد.

ثم نقرأ تحت عنوان شرائع حصار وفتح المدن البعيدة: وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولاً، فإن أجابتكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدًا لكم. وإن أبت وحاربتكم، فإذا أسقطها الرب إلهكم فى أيديكم فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما فى المدينة من أسلاب فاغتنموها لأنفسكم. هكذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم ـ ٢٠: ١٠-١٥.

وإذا عدنا للتاريخ، أو التطبيق العملى لتلك النصوص المقدسة، لوجدنا أن أكبر حركة استرقاق جماعية منظمة قامت بها أوروبا المسيحية فى القرون السابع والثامن والتاسع عشر، فى إفريقيا وآسيا والأمريكات، وتختلف تقديرات أعداد الرقيق الإفريقيين الذين نقلوا إلى الأمريكات فى الفترة بين الثلث الأول من القرن السابع عشر حتى إلغاء تجارة الرقيق فى أواخر القرن التاسع عشر ما بين ٦٠ مليون ومائة مليون، وفي تقديرات أخرى العدد يفوق ذلك كثيرا، ويرجع هذا الفرق الشاسع فى الرقم أن كل إفريقى كان يصل لساحل أمريكى يقابله ٤ أشخاص ماتوا فى مراحل مختلفة. فمات شخص عند القنص (خطف الأفارقة)، وآخر أثناء محاولات الهرب خلال الطريق بين قريته والحامية التى كان يتجمع فيها المقتنصون (المُختَطون)، وآخر مات فى هذا الحصن بينما كان ينتظر السفن الأوروبية لنقله، والرابع مات خلال الرحلة عبر المحيط الأطلنطى. المرجع: الموسوعة الإفريقية، المجلد الثانى تاريخ إفريقيا ص ٣٨٥.

﴿أُجُورَهُنَّ﴾ فادفعوا لهن مهورهن كاملة غير منقوصة ﴿فَرِيضَةً﴾ فرضًا من الله. وقد رأى علماء الشيعة أن الآية تبيح زواج المتعة، وهو شبيه بالزواج الشرعى، إلا أنه موقوت بمدة يتفق عليها الزوجان، ولا يتوارثان إذا مات أحدهما خلال المدة إلا أن يتفقا على ذلك، والخلاف بين السنة والشيعة على تحريمه وتحليله معروف ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ ولا حرج عليكم إذا تنازلت الزوجة عن بعض مهرها عن طيب خاطر، ولا حرج على الزوج إذا زاد فيه راضيًا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخفايا الصدور ﴿حَكِيمًا﴾ فى تشريع أمور عباده.

***

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥)﴾

فمن لم يجد منكم قدرة مالية وسعة ومكانة ليتزوج ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ المقصود بالمحصنة هنا الحرة، فله أن يتزوج من ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى من الإماء ـ الرقيق ـ من المسلمات ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فرب أمة أحسن من حرة فى الخلق والدين، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال أيضًا ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] فبين المسلم والمسلم أخوة فى الإيمان، وكلنا من آدم، وآدم من تراب ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ استأذنوا مواليهن المالكين لهن أو ذوى الولاية عليهن كأب أو أخ، واستدل أبو حنيفة بإذن الموالى على أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن؛ لأنه اعتبر إذن الموالى لا عقدهم ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ادفعوا لهن مهرًا طيبًا يرضيهن ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفيفات عن الزنا ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ غير زانيات ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ ولا متخذات أخلاء وأصدقاء يزنون بهن سرًا ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ بالزواج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ المقصود الزنا بعد الزواج ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ تعددت أقوال العلماء فى حكمة التشريع بأن على الأمة التى تُحصن بالزواج نصف ما على الحرة، فقال بعضهم: وكأن فى ذلك عكسًا لما تسير عليه معظم المجتمعات التى إن سرق فيهم الشريف تركوه، وإن سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وبهذا استدل من قال إن عقاب الزانية الجلد وليس

الرجم؛ لأن الرجم حتى الموت لا يمكن خفضه إلى النصف ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ تلك الرخصة فى الزواج مما ملكت الأيمان لمن خاف من الوقوع فى الزنا ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأن تتحملوا وتصبروا حتى يأتيكم رزقكم من الحرائر؛ فذلك خير لكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

يريد الله بقرآنه ورسوله ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أن يبين لكم أن الزواج والطلاق والمواريث مسائل شرعية، فرضها الله على من كان قبلكم، وإن اختلفت الشرائع والتكاليف فى التفاصيل باختلاف الأحوال والأزمان طبقًا لما بينته سورة المائدة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [٤٨]، ويبدو من السياق أنه كان هناك من يريد إفساد أخلاق المسلمين فى العلاقات الأسرية، كما أنه هناك من يريد ذلك فى العصر الحالى(١) ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بكم وبضعفكم، حكيم فيما شرعه لكم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ فى الوقت الذى يريد الكارهون للإسلام وللمسلمين ـ قديمًا وحديثًا ـ أن تتبعوا شهواتكم، فهى أسهل الطرق لجعلكم تنحرفون عن دينكم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ بشرعه، وبتوبته وغفرانه ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ أمام هوى النفس والشهوات.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا

(١) بثت قناة CNN عرضًا للأزياء فى باكستان فى منتصف نوفمبر ٢٠٠٩، والبلد تحت وطأة الضغط والقصف العدوانى الأمريكى من ناحية، وهجمات طالبان ومن يواليها من الشعب الباكستانى من ناحية أخرى، وظهرت فى القناة سيدة باكستانية نصفها العلوى شبه عار تقول بالإنجليزية: الحمد لله، إننا استطعنا إقامة العرض! ثم ظهر بعدها مصمم أزياء فى شكل شاذ ليقول: نريد أن نعرض على الناس وجهة نظر أخرى! وإنه لأمر جدير بالدراسة أن تهتم CNN ببث ذلك العرض وتعليق السيدة و(السيد)، وتغض النظر عن أحداث جسام أخرى فى باكستان وأفغانستان وفلسطين والشرق الأوسط!

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

حرم الله ـ تعالى ـ أن يأكل المسلم المال بالباطل؛ عن طريق السرقة أو النصب أو الغصب أو الربا أو القمار أو الرشوة ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ وذلك استثناء منقطع، أو منفصل[1]، فليس فى حلال التجارة أكل مال بالباطل، وقد حثت أحاديث نبوية عديدة على التجارة، وأثنت على التاجر الصدوق، «التاجر الصدوق مع النبيين» رواه الترمذى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ نهى عن قتل النفس بالانتحار، أو إهلاك النفس بأكل الحرام، أو قتل المؤمن لآخر، والقتل قد يكون فعليًا أو نفسيًا ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ من يقتل معتديًا وظالمًا ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فمن السهل على الله أن يلقيه فى جهنم ليصلى نارها ﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾ تبتعدوا عن ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ جاء فى الحديث: «اجتنبوا السبع الموبقات» (أى المهلكات) ـ قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» أخرجه الشيخان، وقال: «ألا أُنبأكم بأكبر الكبائر؟» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور ألا وقول الزور» وقال أبو بكرة راوى الحديث: وأخذ يكررها حتى قلنا ياليته سكت ـ رواه الترمذى ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ نمحو عنكم سيئاتكم ما دمتم تجاهدون أنفسكم لتستقيموا لله ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ فى الدنيا والآخرة، وقد جاء فى الدعاء النبوى فى سورة الإسراء ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [٨٠].

***

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

قيل إن أم سلمة (رضى الله عنها) قالت: يارسول الله، يغزو الرجال ولا نغزو، ولا نقاتل فنستشهد، ولنا نصف الميراث، فنزلت الآية. وفيها أنه بدلاً من تمنى فضل الآخر، توجهوا لله

(١) مثل القول العربى القديم: ما اشتكى إلا خيراً، فلا أحد يشتكى من الخير، والمقصود أنه ليس هناك ما يشتكى منه.

سائلين فضله ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ فليتجه الجميع إلى الله يسألونه من خزائنه التى لا تنفد ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إن الله يعلم ما يُصلح به عبيده رجالاً ونساءً.

***

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)﴾

لكل منكم جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقارب، ويرث أيضًا أولئك الذين تعاقدتم معهم على الولاء، وقال بعض المفسرين إنها نُسخت بآية ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال بعضهم إنها قابلة للتوفيق مع آيات الميراث بالوصية، وقال الحنفية إنها غير منسوخة، والمسألة فيها تفاصيل محلها كتب الفقه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ يشهد الله على وفائنا بعقودنا وبحدود المواريث التى بينها لنا.

***

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ على الرجل أن يقوم على شئون المرأة: سلامتها وأمانها وحاجاتها ومصالحها، وتفقهها فى الدين، ويتحمل مسئولية القوامة أمام الله والناس ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فى العمل والسعى وراء الرزق، ومسئولية الإعاشة من مسكن وطعام وشراب وملبس، بل وتوفير الخادمة إن كان قادرًا، وحماية الأسرة، ثم حماية المجتمع، وحماية الأمة، وبالجهاد إذا لزم الأمر ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فى المهر والهدايا والإعاشة، وما إلى ذلك ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ أما النساء الصالحات فهن خاشعات لله، يحققن فى البيت المودة والرحمة والسكينة ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ حافظات للأزواج فى غيبتهم فى أموالهم وأنفسهن بما أمر الله بحفظه، وفى الحديث: «خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك» رواه النسائى ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ والنشوز هو ترفع الزوجة على زوجها وتكبرها عليه ورفضها له وصده عنها ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بالقول اللين والتودد والكلام الجميل، فإن لم يُجْد ذلك ﴿اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ فليوليها الزوج ظهره ولا يحاول مداعبتها ولا جماعها فى فراشها، فإن لم يُجْدِ الهجر الذى يحمل فى طياته رسالة مؤلمة، نأتى للمرحلة الثالثة وهى

﴿ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ ضربًا خفيفًا غير مؤذ[1]، ولا ينعتها بصفات قبيحة تزيد من نفورها ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ ﴾ فإن رجعن عن النشوز والنفور ﴿ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ فلا يحق للزوج بعد ذلك التوبيخ أو الهجر أو الضرب ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فاحذروه، واتقوا الله فى النساء؛ كما أمر رسول الله.

* * *

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) ﴾

فإن لم تُجْد المراحل الثلاث السابقة فى عودة المياه إلى مجاريها واستمر الشقاق ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ فالجئوا إلى الأهل الذين تثقون فى إخلاصهم من ذوى الخبرة والحكمة من طرف الزوج ومن طرف الزوجة ﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ إذا انعقدت نية الحكمين على العمل على استمرار الحياة الزوجية وظهر هذا الإخلاص فى السماء، فلا بد أن ينزل التوفيق من عند الله ﴿ يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ بإذنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾.

* * *

(١) قال النبى (ﷺ) فى خطبة الوداع، والتى أفرد للوصية بالمرأة جزءًا معتبرًا منها: «لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإذا فعلن فاضربوهن ضربًا غير مبرح» رواه مسلم، أى أنه ذكر الحالة التى تبرر للزوج ضرب امرأته ضربًا غير مبرح: أن تدخل لغرفة النوم من لا يريده الزوج، وتجلسه على السرير.
وإذا كان لنا فى رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة، بالفعل وليس فقط بالقول، ما ضرب أحدنا امرأته، وقد جاء فى الحديث «خيركم خيركم لأهله» رواه مسلم، و «استوصوا بالنساء خيرًا» متفق عليه، وقال على كرم الله وجهه: الزوجة ريحانة، وليست قهرمانة.
وجاء فى كتاب *أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا* تحت عنوان: ضرب النساء لإجبارهن على الخضوع فى الولايات المتحدة، يتم ضرب امرأة كل ١٥٠ ثانية، وثلث النساء المقتولات كن ضحايا لأصدقاء وأزواج ورفقاء سابقين، والأمر الأكثر إزعاجًا أن العنف المنزلى هو السبب الرئيسى فى موت النساء فى كل أنحاء العالم فى الأعمار بين الرابعة عشرة والرابعة والأربعين.
* ولا تزال الإحصاءات تدعو إلى القلق لتنامى عدد الرجال الذين يؤمنون بأن العنف هو وسيلة مقبولة كضمان خضوع المرأة.
* أصر قس إيڤانجليكى فى حديث مع أحد المتخصصين فى علم الاجتماع على أن «ضرب النساء فى ازدياد؛ لأن الرجال لم يعودوا رؤساء فى منازلهم. وأنا أنصح النساء بضرورة العودة إلى المنزل وأن يصبحن أكثر خضوعًا ـ صفحات ١٦٠، ١٦١، ١٦٤.
والأخطر من ذلك فى الولايات المتحدة، على وجه الخصوص، عمليات الاغتصاب، وزنا المحارم كرهًا أو طوعًا، وفيها وفى أوروبا مشكلة الإنجاب بدون زواج، أو بزواج، ثم هروب الأب، ومشكلة معدلات الطلاق المرتفعة، والمستمرة فى الارتفاع. وفى البرنامج التليفزيونى الأمريكى الشهير «أوپرا» جاء فى ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٩ أن الاحصائيات القديمة تبين أن نسبة الاعتداء على الزوجات أو الصديقات كانت ١ : ٤، وارتفعت الآن إلى ١ : ٣.
وفى إحصائية حديثه فى فرنسا نوڤمبر ٢٠٠٩، يقتل زوج أو عشيق امرأته كل ثلاثة أيام!.

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ حق عبادته ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ سواء أكان إنسانًا أو ملاكًا، مادة، أو قيمة أو عقيدة، أو هدفًا ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وقد عَظَّمَ الله الإحسان بالوالدين، وجعله عقب الأمر بعبادته ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ذوى الرحم ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ كرر القرآن وأكد، ومن ثم كررت الأحاديث النبوية وأكدت على رعاية اليتامى وكفالتهم، وجاء فى الحديث «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين» وأشار النبى (ﷺ) بأصبعيه المتجاورين، رواه الترمذى ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ العاجزين عن الكسب ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ القريب فى الجوار، وقيل: الجار ذو القرابة ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ أى البعيد فى الجوار، وقيل: الجار الذى ليس من أقاربك ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ أى الرفيق فى العلم والعمل والسفر، وقيل: الزوجة للزوج، والزوج للزوجة ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المسافر الغريب الذى انقطع عن وطنه وأهله ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من العبيد والإماء فى الماضى، وحل محلهم الخدم الآن، فقد أوصى رسول الله (ﷺ) بهم خيرًا، فقال: «إخوانكم خولكم ـ أى خدمكم ـ جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم» متفق عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ متكبرًا مزهوًا معجبًا بنفسه ومشغولاً بها متعاليًا على الخلق، لا تأخذه بهم عاطفة ولا رحمة ولا رأفة.

* * *

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) ﴾

أما من يجمع بين التكبر والتعالى وصفة البخل، ثم رأى أو سمع أن فلانًا سيساعد فلانًا هم بمنع الصدقة وأمره بالبخل ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ وإذا فتح الله لهم باب رزق أخفوه حتى لا يساعدوا المحتاجين ولم يظهروا عليهم نعمة الله ـ وفى الحديث: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» رواه الترمذى ـ هؤلاء الذين جحدوا نعم الله عليهم، وجحدوا حق المال الذى استخلفهم الله عليه، فأولئك الكافرون للنعم أعد الله لهم عذابًا مهينًا.

* * *

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) ﴾

وفريق آخر ينفق أمواله قاصداً وجه الناس، ينفق رياءً وسمعة، ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، واتبع الشيطان، فبئس القرين. وفى الحديث القدسى عن أبى هريرة: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى؛ تركته وشركه» رواه مسلم ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ ما الذى يضرهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وبذلوا من مال الله طلبًا لمرضاته، وقد قال الصادق الأمين: «ما نقص مال من صدقة» رواه مسلم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾

إن الله لا يبخس أحداً ثواب عمله وهو العدل الحق ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ بل إنه ﴿ يُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

* * *

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾

فكيف يكون حال الكفار والمشركين ﴿ إِذَا جِئْنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ من الأنبياء يشهد على أمته ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا ﴾ على هؤلاء جميعًا ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يود الكفار والذين تنكروا لمحمد (ﷺ) ﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ لو يدفنون ويختفون فى باطن الأرض، وتسوى فوقهم بعد ذلك ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فيومئذ ستنطق جوارحهم، وتحكى كل صغيرة وكبيرة.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ

النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾

ينهى الله المؤمنين عن الصلاة فى حالة السُّكْر حتى يعوا ما يقولون، وتلك الخطوة الثانية فى تحريم الخمر ـ وكانت الأولى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] ـ ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ أى لا تصلوا وأنتم جنب إلا إذا كنتم على سفر أو عابرى سبيل بعيدًا عن بيوتكم ولم تجدوا ماء، عندئذ استعملوا رخصة التيمم، وفى تفسير آخر: لا تقربوا المساجد وأنتم جنب إلا عابرى سبيل ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ ﴾ مرضًا يزيده البلل سوءًا ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ مسافرين ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ والغائط هو المكان المنخفض، وهو كناية عن قضاء الحاجة ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ أى باشرتموهن كناية عن الجماع، وعند ابن مسعود وابن عمر والشافعية ما دون الجماع من قبلة وما إلى ذلك ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ إن الله من شأنه العفو والمغفرة. المعنى اللغوى للتيمم: القصد، والمعنى الشرعى: القصد إلى الصعيد (التراب)، لمسح الوجه واليدين، بنية الصلاة. وفى الحديث: «جعلت الأرض كلها لى ولأمتى مسجدًا وطهورًا، فأينما أدركت رجلاً من أمتى الصلاة فعنده طهوره» رواه أحمد. ويباح التيمم للمحدث حدثًا أصغر أو أكبر فى الحضر والسفر إذا لم يجد الماء، أو كان به جراح أو مرض يتفاقم بالوضوء، وإذا كان الماء قريبًا ولكنه خاف على نفسه أو عرضه أو ماله أو فوت الرفقة (فى السفر بالطائرة أو القطار وما إلى ذلك)، وإذا احتاج الماء لطعامه وشرابه ـ أما كيفية التيمم، فعلى المتيمم أن يقدم النية، ثم يضرب بيديه الصعيد الطاهر ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين [وقد قال رسول الله (ﷺ) عندما رأى أحد الصحابة يتمعك ـ أى يتمرغ ـ فى الصعيد، أى فى تراب الأرض، قال له: «إنما كان يكفيك هكذا» وضرب بكفيه الأرض، ونفخ فيهما لإزالة التراب، ثم مسح وجهه وكفيه. رواه الشيخان] ـ «فقه السنة» السيد سابق.

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) ﴾

ألم يدهشك الأحبار الذين أوتوا حظًا من العلم مما جاء فى التوراة ﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ ﴾ يبدلون ما أُنزلَ إليهم ليضلوا قومهم ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ويريدون منكم أن تضلوا

وتنحرفوا عما أنزل الله عليكم ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ إن الله عليم بما فى صدورهم، وتكفيكم ولاية الله ونصرته.

* * *

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) ﴾

من اليهود فريق يحرفون كلام الله عن معناه ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ سمعناك يا محمد وفهمنا قصدك، ولكننا سنعصيك ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أى اسمع لا سمعت ولا وعيت ﴿ وَرَاعِنَا ﴾ يقصدون سب النبى (ﷺ) بأنه أرعن، ويظهرون أنهم يقولون إنه راعيهم ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ ﴾ التواءً ومكرًا تنطقه ألسنتهم وقدحًا فى الدين ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ عندما سمعوا كلام الله ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ استحقوا اللعنة بكفرهم إلا فرقة قليلة منهم.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ آمنوا بالقرآن الذى أنزلناه مصدقًا لما معكم من التوراة والإنجيل[1] ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ من قبل أن نتزل بكم عقابًا نرد به وجوهكم، أى نردكم، إلى ما كنتم فيه من ضلالة قبل إرسال الرسل والأنبياء لكم، أو كما كنتم لا تفقهون شيئًا عند ميلادكم، والله أعلم ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ أو نلعن تلك الوجوه كما لعنا الذين اعتدوا فى السبت من اليهود ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ نافذًا لا محالة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ يغفر الله ما دون الشرك لمن يشاء ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾.

* * *

(١) كما ذكرنا من قبل، يصدق القرآن على الأركان الأساسية للأديان الإبراهيمية: التوحيد، والبعث والحساب، وإرسال الله للأنبياء والرسل، وإنزال الكتب لهداية أقوامهم.
وهناك فى الكتاب المقدس الكثير من الآيات التى لا يشك قارئها المسلم فى أنها تحمل النور الإلهى، منها على سبيل المثال قول المسيح (ﷺ) إن مدار الشريعة كلها هى أن تحب الله بكل نفسك، وتحب أخاك =

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

والمراد طائفة من أهل الكتاب راحوا يرفعون من قدرهم حتى قالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١] فقل لهم يا محمد ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ بل الله هو الحكم وعنده الميزان الحق، ويتفضل على من يشاء ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ ولا يظلم أحدًا حتى ولو بمقدار ضئيل كالخيط فى شق النواة ﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ انظر كيف يختلقون على الله الكذب بتزكيتهم أنفسهم، وكفى بهذا الافتراء ﴿ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

الجبت والطاغوت اسمان للشرور والضلالات، وما يُعبد من دون الله، من أصنام أو بشر.

ألا تتعجب من طائفة من علماء اليهود ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ويقولون لمشركى مكة أنتم أهدى سبيلاً من المسلمين ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ قال الزمخشرى [الجبت: الأصنام وكل ما عبد من دون الله: والطاغوت: الشيطان. وذلك أن حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشًا على محاربة رسول الله (ﷺ)، فقالوا (قريش): أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم؛ ففعلوا فهذا إيمانهم ﴿ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمر بعبادة الله

=كما تحب نفسك، ومنها سؤاله: ماذا يستفيد الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه؟ وقوله: من يريد السيادة على قوم فليكن خادمهم، ومنها قوله: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وقد سبق كلٌ من القول الأول والأخير فى العهد القديم.
وهناك أيضًا قول عيسى (ﷺ): إن الله يقول للناس يوم الحساب إنهم كانوا سيجدونه لو زاروا أخاهم المريض، وتصدقوا على أخيهم الفقير.

وحده وينهى عن الشرك. قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت، ونسقى الحاج، ونقرى الضيف، ونفك العانى. وذكروا أفعالهم، فقال: أنتم أهدى سبيلاً].

وقال محمد الغزالى: [وبلغ السعار اليهودى الحضيض عندما سُئل رؤساء إسرائيل أى الفريقين أولى بالنصر وأدنى إلى الحق؟ فكان ردهم: الوثنية أفضل من الإسلام، وحماة الجاهلية خير من أصحاب محمد.. !! إن الدين عند بنى إسرائيل ليس عدالة ولا سماحة ولا خشية! إنه كل ما يذكى الصلف الجنسى عند القوم، ويشبع أثرتهم وغرورهم.

وقد كرهوا العرب، ولا يزالون؛ لأنهم الأمة التى اصطفاها القدر لحمل أمانات الوحى، بعد ما عبث الإسرائيليون بالوحى، وناءوا بتكاليفه.

وأولاد يعقوب جزء محدود من آل إبراهيم، فلماذا يريدون احتكار نعمة الله على إبراهيم وآله، فيظفرون بها وحدهم ولا يكون لأولاد إسماعيل نصيب منها؟.

ولماذا ينقمون على أبناء عمومتهم ما نالهم من فضل الله، ويمالئون عُبّاد الأصنام عليهم؟!].

***

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾

أم أن تلك الطائفة تشارك الله ملكه تحت زعمهم أنهم أحباء الله، أو أبناؤه، أو أنهم شعبه المختار، ولو كان لهم ذلك النصيب، لما أتوا الناس نقيراً، والنقير هو النقرة فى ظهر النواة. أم أنهم، فى الحقيقة، يحسدون الرسول (ﷺ) والمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما ذلك إلا استمراراً لما آتاه الله لإبراهيم (عليه السلام) وأبنائه من الكتاب والحكمة والملك العظيم. وقد تعددت أقوال المفسرين فى ذلك الملك العظيم، فمنهم من قال إنه فى الآخرة وليس فى الدنيا، ومنهم من قال هو ملك الإيمان، وقيل معرفة الله، وقيل ملك يوسف وداود وسليمان ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولكن سيجىء فى سورة المائدة قول موسى(عليه السلام) لقومه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [٢٠]، وقبله كان يوسف (عليه السلام) ملكًا غير متوج على مصر، وربما ورث أولاده منصبه، وقيل غير ذلك، والله أعلم ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ فمن أهل الكتاب من آمن بما آتينا آل إبراهيم، ومنهم من رفضه وصد عنه، فتكفى الأخيرين نار جهنم.

***

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾

إن الذين جحدوا آياتنا سيصلون نارًا كلما فقدت جلودهم الإحساس بالعذاب نتيجة للحرق الشديد ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ ليستمر الإحساس بعذاب النار(١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ عزيزًا فى انتقامه، يعاقب بمقتضى حكمته، أما الذين ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فثوابهم عند الله ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ مطهرة من كل نقص أو عيب ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ لا يزعجهم حر ولا برد.

* * *

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾

الأمانات هى كل ما ائتمن عليه الإنسان من حقوق لله ـ تعالى ـ وحقوق للعباد، بما فيها حق نفسه عليه، فيأمر الله المسلمين بأن يعطوا كل ذى حق حقه، وأن يحكموا بين الناس بالعدل، وأداء الأمانات لأهلها، والحكم بين الناس بالحق نعمة كبرى، نادرًا ما حققتها الإنسانية فى تاريخها الطويل ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ بما تعملون. وجاء فى الحديث «أدِ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك» رواه الترمذى.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾

تأمر الآية المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله، ثم طاعة أولى الأمر من الرؤساء والحكام والعلماء ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أى اختلفتم فى أمر، فارجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فكأن الآية تقول: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن اختلفتم فى شىء، فردوه إلى الله وإلى الرسول، أى إلى القرآن والسنة ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ للحكام والمحكومين.

---

(١) تقول الأبحاث الطبية إن الأعصاب الطرفية المسئولة عن الشعور بالألم موجودة فى الطبقة الجلدية.

وقد كررت آيات القرآن الأمر بإطاعة أولى الأمر، ومن ثم كررتها الأحاديث النبوية، فلم تكن طاعة أولى الأمر أمرًا مفروغًا منه ولا حتى مقبولاً فى شبه الجزيرة العربية، وفى كثير من أنحاء العالم، وغنى عن الذكر أنه لا تقوم مجتمعات كبرى إلا بطاعة قانون يسرى على الجميع، حكامًا ومحكومين، ويقوم بتنفيذه حاكم أو سلطة تنفيذية يجب طاعتها، ولكن فى الوقت نفسه، وضعت الشريعة خطوطًا رئيسية لنظام الحكم، فالحاكم يجىء بالشورى، ويحكم بالشورى، ولا ينتهك الشرع، ولا يستبد بالأمر، ولا يحتكر الحكم، حتى قال بعض العلماء، إن من لا يحكم بالشورى لا يستحق الطاعة، ولذلك تكررت الآيات القرآنية بالحكم بما أنزل الله، وسيجىء فى سورة المائدة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٧]، ونزلت آيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجاء فى الحديث «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» رواه أبو داود، وجاء أيضًا: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» رواه أحمد(١).

وقال بعض المفسرين: إن الآية ٥٨ سبقت الأمر بطاعة أولى الأمر لتضع قواعد إطاعتهم: أداء الأمانات لأهلها، وأن يحكموا بالعدل، وقالوا أيضًا: إن أداء الأمانات إلى أهلها تعنى - من ضمن ما تعنى - أن أمانة الحكم لا يقوم بها إلا من هو أهل لها، وقال الزمخشرى فى ذلك: [وأمراء الجور لا يؤدون أمانة، ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئًا إلى كتاب ولا إلى سنة، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله وعند رسوله، وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة].

***

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾

انظر يا محمد وتعجب من الذين يقولون ادعاءً ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ التوراة والزبور والإنجيل ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ يتركون ما أنزل الله من أحكام ويتبعون الطاغوت، والطاغوت اسم لكل ما يُطغى الإنسان، وكل ما يُعبد

(١) قال الرئيس الأمريكى الأسبق كارتر فى كتابه «*الحياة بالإيمان*»: من حق المواطن الأمريكى أن يعلن العصيان المدنى إذا خالفت القوانين ما جاء فى الكتاب المقدس - صفحة ١١٧، والكتاب من منشورات تايمز بوكس - راندوم هاوس عام ١٩٩٦، ١٩٩٨.

غير الله، ورمز للشر والضلال، كما جاء فى الآية ٢٥٦ من سورة البقرة، والآية ٥١ من هذه السورة، وقيل المقصود هنا كعب بن الأشرف اليهودى، وقيل بل المقصود هو أحد كهنة الجاهلية، ولا مانع من الجمع بين كل ذلك، والعبرة بالمعنى، وهو زعم البعض الإيمان بالله ورسوله، ثم يرفضون تحكيم الله ورسوله، ويريدون حكم ابن الأشرف أو الكاهن، أو أمثالهم من الطواغيت، وقد أمرهم الله فى جميع الكتب السماوية ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾ أن يتبرءوا من كل حكم يخالف أمر الله ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيدًا﴾ والشيطان قد يكون من شياطين الإنس أو الجن الذين يريدون إبعاد المؤمنين عن أحكام الله، واتباع الهدى.

***

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣)﴾

من الناس من يرحب ويأنس إلى كل حديث ما دام بعيداً عمّا قال الله وقال الرسول ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ رأيتهم ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يرفضون ذلك ويأبون ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ فكيف يكون حالهم إذا نزلت بهم المصائب بسبب أعمالهم فلم يجدوا ملجأ إلا إليك، وعندئذ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ ما كنا نقصد بتحكيم غير الله وغير رسوله إلا الإحسان والتوفيق والمصلحة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من مرض النفاق وكراهية الإسلام والمسلمين ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تُقبل عليهم بالود والبشاشة ﴿وَعِظْهُمْ﴾ إبلاغًا لرسالتك ﴿وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ وأخبرهم حقيقة أنفسهم بطريقة بليغة.

***

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾

وما أرسل الله من رسول إلا ليتبعه الناس ويطيعوه، وليس لمجرد أن يقصوا قصصه ويذكروا محاسنه، وليس ليتركوا الاعتبار برسالته، وليس ليتركوا أوامره ويأتوا نواهيه. وتعددت

أقوال المفسرين فى ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فمنهم من قال: أذن الله بتلك الطاعة، فهو الأصل فى طاعة كل المخلوقات له بما فى ذلك الرسل، ومنهم من قال: إنها تعنى بأمر الله، وقال آخرون: بتوفيق الله لهم للطاعة والهداية. ولو أن أولئك الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان، جاءوا إليك تائبين مستغفرين؛ فرجوت المغفرة لهم ﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ فالله «يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل» رواه مسلم. وشرط الله الاحتكام إلى شرعه الذى بينه رسوله، فلن يكون أحدكم مؤمنًا ﴿ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ وكما كان على المؤمنين فى عصر الرسالة تحكيم الرسول (ﷺ)، فعلى المؤمنين من بعده، وإلى يوم الحساب، تحكيم سنة الرسول (ﷺ) ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا ﴾ ثم لا يضيقوا بما حكمت به ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وفى الحديث: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» رواه أبو نعيم، وهذا هو الإيمان الكامل الحق، وبقدر ما ينحرف هوى المرء عما جاء به خاتم المرسلين (ﷺ)، بقدر ما ينقص إيمانه وينحرف.

***

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) ﴾

ولو أنا فرضنا على أولئك الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت أن يقتلوا أنفسهم فى سبيل الله، أو يهاجروا من ديارهم، كما فعل كثير من المسلمين حقًا، ما فعل ذلك إلا قليل منهم، ولو فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم وتثبيتًا لأنفسهم على الإيمان، ولهداهم الله صراطًا مستقيمًا.

***

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾

من منا لا يتمنى أن يحظى بصحبة النبيين والصديقين الذين صدقوا فى الإيمان بالله والعمل فى سبيله، والشهداء الذين قاتلوا فى سبيل الله حتى استشهدوا، والصالحين الذين رضى الله عنهم وأرضاهم؟ من عزم على ذلك، فليطع الله ورسوله، لينعم فى ﴿ ذَٰلِكَ

الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ وذلك هو الخير الحقيقى والخير الباقى، وليس متع الدنيا الزائلة ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ بمن يستحق ذلك.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) ﴾

خذوا حذركم أيها المؤمنون، فاخرجوا لقتال عدوكم جماعة بعد جماعة، أو اخرجوا جميعًا، واعلموا أن هناك ممن يعيشون وسطكم مُثبطين ومُعَوقين عن الجهاد فى سبيل نصرة الحق، يتحججون ويتذرعون بشتى الأسباب والموانع، وبكل السبل والوسائل، قديمًا فى عصر الرسالة، وحاليًا، وإلى أن تقوم الساعة، فتارة يقولون بعدم واقعية الجهاد، وتارة يقولون بأن ذلك ماضٍ لا ينفع فى الحاضر، وتارة أخرى يقولون علينا الاهتمام بالأكل والشرب، فذلك أنفع وأجدى سبيلاً، وكأن طاعة الله بالجهاد فى سبيله تمنع الرزق، أو كأن الرزق ليس بيد الله، ولا العزة ولا الكرامة، رغم تأكيد وتكرار الآيات القرآنية بأن الرزق والعزة والأجل بيد الله ـ ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ جراح أو قتل أو هدم أو تدمير ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ ﴾ أى معهم فى المعركة أشهد ما حدث ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ كنصر أو عزة ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ ندمًا وحسرة ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ فهو لا يفرح بما آتاكم ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فآخذ حقى من النصر.

* * *

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾

من يعزم على القتال فى سبيل الله هو الذى يبيع الدنيا الفانية بالآخرة الباقية، وسواء قتل فى المعركة أو انتصر فسينال إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وفى الحالتين ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

* * *

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) ﴾

هذه الآية الكريمة تحرض المسلمين على القتال فى سبيل الله لإنقاذ المستضعفين ﴿ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ الذين لم يستطيعوا الخروج إلى المدينة فارين بدينهم، يدعون ربهم ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ مكة المكرمة ﴿ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ بالإصرار على الشرك بالله وعبادة الأصنام، وفتنة المسلمين عن دينهم، وقتالهم لاستئصالهم إذا لزم الأمر ﴿ وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ أرسل إلينا من عندك من يتولانا وينصرنا، وقد دعوا الله بذلك فى وقت كان المسلمون قلة ضعفاء، ثم قويت شوكتهم، ودخل محمد (ﷺ) مكة فاتحًا، خاشعًا متواضعًا، وقال لأهل مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» رواه أحمد.

***

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾

هناك من يقاتل فى سبيل إعلاء كلمة الله بالعدل والحق، وهؤلاء هم المؤمنون حقًا، وهناك من يقاتل ضد إعلاء كلمة الله، وأولئك هم الكفار والمشركون والمنافقون، وهؤلاء هم أولياء الشيطان حقًا، فليقاتل أولياء الله أولياء الشيطان مهما كانت قوتهم وكيدهم؛ لأن كيد الشيطان ضعيف ولو ظهر قويًا وجمع كثيرًا.

***

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) ﴾

تعجب يا محمد ممن كانوا يبغون قتال المشركين فى مكة فلم تسمح لهم؛ لعدم الإذن بالقتال فى ذاك الوقت، وطلبت منهم ضرورة الحرص على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كعلامتين على إقامة الدين ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ ﴾ بعد أن هاجروا إلى المدينة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ ﴾ فإذا بطائفة منهم يرتعدون خوفًا من لقاء العدو كخوفهم من رب العالمين أو أشد ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾ ربنا لماذا فرضت علينا

القتال؟ ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هلا أمهلتنا إلى وقت آخر لنستمتع بالحياة الهادئة فى المدينة؟! قل لهم يا محمد: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وإن طال العمر وحَسُن المقام إذا قيست بخير الآخرة ﴿لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولن تظلموا بمقدار الخيط الرقيق الذى فى وسط النواة.

***

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

لا مفر من لقاء الله؛ فالموت حق وهو لاحق بكم ولو كنتم فى حصون حصينة، وإذا مستهم نعمة من نعم الدنيا قالوا هذه من عند الله، وإذا أصابهم شر من شرور الدنيا قالوا هذه من عندك، أى بسببك يا محمد، قل لهؤلاء الذين لا يفقهون إن كل ما يقع فى ملكوت الله بإذنه وعلمه، وإن النعمة تعود إليه، والسوء والشر إنما هما عاقبة عمل الإنسان، وفى الحديث «ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر» رواه ابن عساكر ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك وصدقك.

***

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

جعل الله طاعة رسول الله (ﷺ) من طاعته فى كل أمور الشرع[1]، لأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]، ومن تولى عنك وأعرض عن هديك فلا

(١) يُفرق العلماء بين ما يبلغه الرسول (ﷺ) للناس من أمور الشرع، وما يراه هو من أمور ووسائل دنيوية. فقد نزل الرسول (ﷺ) بأهل بدر فى موقع رآه الحباب بن منذر ليس بمنزل الحرب، فغير الرسول (ﷺ) موقع قواته بناء على نصيحته. وفى غزوة الأحزاب، حين جاءت كبرى قبائل العرب مع اليهود لاستئصال المسلمين، فبدأ الرسول (ﷺ) يفاوض غطفان على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة وينصرفوا، ثم شاور سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيما الأنصار، فقالا مثلما قال الحباب: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعة، وإن كان شيئًا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه. ومثل بريرة الجارية الذكية التى شفع رسول الله (ﷺ) لزوجها عندها ألا تفارقه بعد أن تحررت، فسألته نفس السؤال، فلما أجابها بأنه فقط شافع، رفضت زوجها.

تحزن؛ لأن مهمتك هى البلاغ. ويقول بعضهم سمعًا وطاعة لكل ما تقوله، فإذا خرجوا من مجلسك، دبرتْ جماعة فى السر غير ما أعلنَتْه فى مجلسك، فأعرض عنهم فإن الله يعلم ما يبيتون ويسجله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

* * *

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾

يقول تعالى: أفلا يتأملون القرآن ويدركون جلاله وجماله وفيوضاته، ويفقهون علومه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ ولو كان من تأليف بشر لتناقضت أقواله وأحكامه، ولما طابقت أحداثه الواقع المُتكشف بعده، وإلى يوم الحساب.

* * *

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣)﴾

يتحسس المنافقون الأخبار حتى إذا علموا نصيبًا منها أشاعوه، ولو تريثوا حتى يعرفوا الحقيقة من الرسول والصحابة المقربين وأولى الأمر لعلموا حقيقة الأمور، فلولا أن الله ثبت قلوبكم ومنع الفتنة، لا تبع أكثركم إغواء الشيطان، ولم يسلم من ذلك إلا القليل.

* * *

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (٨٤)﴾

دع يا محمد كل المتقاعسين وعشاق الدنيا الفانية من المنافقين، وقاتل بنفسك فى سبيل الله، فلست مسئولاً إلا عن نفسك، وحرض المؤمنين على القتال فى سبيل الله، لعل الله يمنع ويرفع شدة وأذى الذين كفروا، وهو أشد قوة وانتقامًا.

* * *

﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾

مَنْ يَسْعَ أو يتوسط فى أمر يترتب عليه خير، يكن له حظ منه، ومَنْ يَسْعَ فى سيئة يترتب عليها أذى لأحد يقع عليه نصيب منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً حفيظًا. وإذا ألقى عليكم أحد السلام فردوا تحيته بأحسن منها فى أى شكل كانت، والله حسيب على كل لفظ وإيماءة، وهو جامعكم كلكم ليوم الحساب، لا ريب فيه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

***

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)﴾

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ يؤنب الله المؤمنين، كيف انقسمتم إلى فرقتين بخصوص المنافقين؟ أتريدون أن تهدوا من أضلهم الله بسبب جحودهم؟ أولئك الذين حق عليهم قول الله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ والله نكسهم وردهم إلى الكفر ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أتريدون أن تهدوا فى سبيل الله مَنْ قدَّرَ اللهُ فى علمه الأزلى أنه لا يهتدى بسبب تكبره وجحوده؟ ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ طريقًا إلى الهدى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ إنهم يتمنون لكم أن تكفروا بالله كما كفروا ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ فى الكفر والضلال ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا توالوا أولئك المنافقين حتى يهاجروا من مكة، ويدخلوا مع المؤمنين فى المدينة، فى عصر الرسول (ﷺ)، ويهاجروا النفاق بصوره المختلفة، بعد عصر الرسول (ﷺ) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ تبين هذه الآية والآية التى تليها أن أولئك المنافقين انقلبوا ضد المؤمنين، وعملوا على إعادتهم للكفر، وتهيأوا لقتالهم ـ كما يظهر من الأمر بعدم قتالهم إذا جاءوا للمؤمنين بسبب عدم قدرتهم على قتالهم ـ لذلك جاء الأمر بقتالهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ إلا الذين يلجئون ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق بعدم الاعتداء ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا

﴿قَوْمَهُمْ﴾ أو جاءوا إليكم بعد أن صعب عليهم أن يقاتلوكم، أو يقاتلوا قومهم، فأولئك لا تقاتلوهم، أى أن الأمر القرآنى هنا ألا تقاتلوا المنافقين الذين يودون أن يخرجوكم من دينكم، والذين يصلون لقوم بينكم وبينهم ميثاق، والذين لو استطاعوا أن يقاتلوكم لفعلوا، ولكنهم لا يستطيعون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ ولو شاء الله لجعلهم يقاتلونكم، ولكن إذا اعتزلوا قتالكم، وسالموكم ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ فاتركوا أولئك المنافقين وشأنهم.

***

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١)﴾

ستجدون طائفة أخرى من المنافقين، يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، كلما افتتنوا ازدادوا نفاقًا، فإن لم يتوقفوا عن قتالكم، وإن لم يكفوا عدوانهم عليكم، وإن لم يتفقوا معكم على السلام، فأولئك يحل لكم قتلهم أين ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم، وأولئك أبحنا لكم بالحجة الواضحة قتالهم.

***

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾

حرام على المؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا ما حدث بطريق الخطأ، ومن قتل مؤمنًا خطأ فالواجب عليه عتق عبد أو أمة من المؤمنين، وتقديم دية عوضًا لأهل القتيل ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ إلا أن يتنازلوا عن أخذ الدية، وهم بذلك يكونون كمن تصدق على القاتل، فإن كان القتيل من قوم عدو لكم وفى حالة حرب معكم، فعلى القاتل الذى قتل بطريق الخطأ تحرير رقبة مؤمنة ولا دية عليه؛ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق، أى عهد أو هدنة أو أمان بأى شكل كان،

فعلى القاتل دفع فدية إلى أهل القتيل، وتحرير رقبة مؤمنة، فمن لم يستطع تحرير الرقبة ودفع الدية، فعليه صيام شهرين متتابعين، أما من يقتل مؤمنًا متعمدًا، أى مع سبق الإصرار والتعمد ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وجاء فى الحديث: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مؤمن» رواه الترمذى.

والآية فى المسلمين الذين يقتلون مسلمين لا يعرفون أو لا يوقنون من إسلامهم، كما سيظهر من الآية التالية وكما روت كتب السيرة، فليس معناها أنه يمكن للمسلم أن يقتل غير المسلم، وأيضًا استخدمت الآية كلمة المؤمن وليس المسلم، والمؤمن تعنى من يؤمن بالله الواحد الأحد، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر. ولم تكن هناك دولة للمسلمين فى ذلك الوقت، وعند تحققها، تسرى القاعدة الإسلامية القائلة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» التى تشمل كل من يعيش وسط المسلمين بأمانهم، حتى لو كان مشركًا أو ملحدًا.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ إذا خرجتم لقتال العدو، فتعرفوا على أمور وشئون الأعداء قبل القتال، هل هم مسلمون؟ أم منافقون أو مشركون مسالمون؟ أم منافقون أو مشركون محاربون؟ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ اقبلوا الظاهر ولا تتهموا القائل بالكفر ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تسارعون فى قتله لأخذ أمواله، وهذا عرض زائل والله الغنى عنده ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فاطلبوا ما عند الله وارغبوا فيه ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ فأنتم كذلك لم تكونوا مؤمنين فيما مضى، فلا تعتدوا قبل أن تتبينوا ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ قبل الحكم الخاطئ على الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

***

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) ﴾

﴿ لا يَسْتَوِي ﴾ فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴿ الْقَاعِدُونَ ﴾ عن الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ غير أصحاب الأمراض والعلل التى لا تسمح لهم بالجهاد ﴿ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله (ﷺ) قال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» رواه البخارى ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ وعد الله الفريقين المؤمنين بالجنة، والإيمان هو قول يصدقه عمل ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴾

إن الله لا يحب الاستكانة والخنوع واستضعاف النفس واستذلالها، وفى الحديث: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز» متفق عليه، ومن تمام الإيمان أن يوقن المؤمن بقدرة الله وعزته، وأنه استخلفه فى الأرض وأعانه على تلك الخلافة، فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وإذا كان الله قال فى محكم آياته ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ فمن ذا الذى يستطيع أن يقلل من كرم الله؟ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ الذين حان أجلهم وهم فى وضع الاستكانة والخنوع بسبب ظلمهم أنفسهم سيسألون ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ أى ما الذى جعلكم هكذا؟ وهو استفهام استنكارى ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قالوا كان أهل مكة يستضعفوننا ويذلوننا، فترد عليهم الملائكة قائلة: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ كان بوسعكم أن تأبوا الظلم فتهاجروا إلى أرض أخرى تعبدون فيها رب العالمين كما أراد ويرزقكم الله فيها؛ هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم باستضعافها وبرضاهم الذل والخضوع والخنوع والانقياد للكفار والمنافقين ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ جزاء ظلمهم أنفسهم، ولكن الله استثنى من العذاب

﴿ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ بسبب أعذار حقيقية كالمرض أو الهرم أو العمى أو قلة الحيلة ومحدودية الفكر؛ الذين لا حول ولا قوة لهم في الخروج أو الهجرة، هؤلاء المستضعفون حقّا ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾.

***

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) ﴾

من يهاجر ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يجد في الأرض التي يهاجر إليها ﴿ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ متحولاً ينتقل إليه ميسراً برغم أنف عدوه، ويجد سعة في الرزق ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ التزم الله بأجره وضمنه له. وقد نزلت هذه الآية في ضَمْرة بن جندب الذي خرج من بيته مهاجراً فمات في الطريق، فقال المشركون: ما أدرك هذا ما طلب، فكذب الله زعمهم. وإذا كانت الآية نزلت في ضمرة رضي الله عنه، فهي تسري على كل من يفعل فعله، والعبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

***

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) ﴾ ليس عليكم حرج أن تقصروا الصلاة إذا سافرتم ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إن خفتم أن يباغتكم الذين كفروا وينقضوا عليكم ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ قال الطبري: [عن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: أعجب من قصر الناس الصلاة وقد أمنوا، وقد قال الله تبارك وتعالى ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فقال عمر: عجبت مما عجبت منه، فذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»] رواه مسلم، ولكن قال المراغي: [ليس هذا هو قصر الصلاة الرباعية في السفر المبين في كتب الفقه؛ إذ هذا مأخوذ من السنة المتواترة[1]، بل المراد هنا القصر في صلاة الخوف المبين في الآية التي بعدها وفي سورة البقرة

(١) الحديث أو السنة المتواترة هي التي تناقلها عدد من الرواة في كل طبقة، بحيث لا يمكن تواطؤهم على الخطأ أو الكذب، وذلك بأن يكونوا على مذاهب مختلفة ومن بلاد مختلفة، وهي بمثابة نص قطعي الثبوت.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾] ولا محل للخلاف، فخوف العدو رخصة لصلاة الخوف بنص القرآن، والسفر رخصة لقصر الصلاة، ولكن تؤدى بهيئتها المعتادة، استنادًا على السنة المتواترة.

* * *

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢)﴾

هذه الآية تبين كيفية صلاة الخوف التى يصليها المسلمون فى المعركة ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ يا محمد ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أى صلاة الجماعة ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أى قسمهم إلى مجموعتين، جماعة تصلى خلفك، والأخرى تقوم على الأسلحة وتراقب العدو ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ الفريق الذى يصلى خلفك ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ فلا يتخلوا عنها ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ الطائفة الثانية التى تحرسكم، فإذا أنهوا الركعة بالسجود الثانى، ذهبت الطائفة التى صلت وراءك وجاءت الأخرى لتصلى معك، ولتحمى الطائفة الأولى ظهوركم، وهذه الصلاة بهذه الكيفية فى حالة الضرورة التامة كما قال مخلوف، ويبدو أن الصلاة بهذه الكيفية مع النبى (ﷺ) حتى لا يفوت أحدًا من المجاهدين ثواب الصلاة وراءه، وأما بعد وفاة النبى (ﷺ) فيمكن أداء الصلاة فى جماعتين أو أكثر، الواحدة تلو الآخرى، وتعددت الأقوال فى كيفية أداء الركعة الثانية لكل طائفة، فعند مالك يصلى الإمام بطائفة ركعة ويقف قائمًا حتى تتم صلاتها وتسلم وتذهب، ثم يصلى بالثانية ركعة ويسجد ثم يسلم، فيقومون ويركعون لأنفسهم الركعة الباقية، ثم يسجدون ويسلمون، وقال مخلوف: [ظاهر أن الآية فى صلاة الخوف فى غير حالة الالتحام، أما فى حالته فقيل: يؤخرون الصلاة إلى أن يأمنوا، ثم يقضون ما فاتهم منها، وقيل: يصلون بالإيحاء بالركوع والسجود إلى أى جهة، رجالاً وركبانًا] ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ لأجل هذا التربص بكم لا بد من منتهى الحذر والاحتياط ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ لا إثم عليكم إذا سكنتم للراحة من مشقة أو مطر أو مرض فوضعتكم أسلحتكم، على أن تكونوا على حذر، واطمئنوا إلى أن

الله ﴿أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. قال محمد الغزالى: [والذى أميل إليه أن هذا الحكم خاص بالرسول (ﷺ) وصحابته، فليس من السائغ أن يؤم المسلمين أحد والنبى (ﷺ) موجود. أما فى عصرنا هذا، فإن تعدد الأئمة سهل، وقد اختلفت أساليب القتال، ومن الممكن أن تتعدد الجماعات والقيادات دون خوف على دين أو دنيا].

* * *

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾

فإذا أديتم صلاة الخوف وقت المعركة، فاستأنفوا ذكر الله، وانشطوا فى ذكره وأنتم قائمون محاربون، واذكروه وأنتم فى راحتكم وطمأنينتكم، واذكروه وأنتم على جنوبكم للنوم والراحة، فإذا ذهب الخوف وشعرتم بالطمأنينة، فاحرصوا على إقامة الصلاة كاملة فى أوقاتها المحددة واستوفوا أداءها، واعملوا بما أمرتكم به كما بينت سورة العنكبوت ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [٤٥].

* * *

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾

لا تضعفوا فى قتال من يقاتلكم، فإن كنتم تعانون أهوال القتال فإنهم مثلكم يعانون، ولكن أنتم تقاتلون فى سبيل الله، وهم يقاتلون عدوانًا وظلمًا وتكبرًا، والله عليم بالظواهر والنوايا، حكيم فى تصريف شئون الدنيا والآخرة.

* * *

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾

نزلت هذه الآية فى طعمة بن أبيرق الذى سرق درع قتادة بن النعمان الأنصارى، فلما انكشفت السرقة، أودع طعمة الدرع لدى رجل يهودى لينجو بنفسه ويتهم اليهودى، وعندما استخرجوا الدرع من بيت اليهودى قال لهم: إن طعمة بن أبيرق قذفها عنده، ولكن طعمة أنكر، وجاء قوم طعمة يدافعون عنه، واستغلوا أن المتهم يهودى، وألصقوا به الجريمة، فنزلت الآية تأمر الرسول (ﷺ) بالحكم بين الناس بالحق، كما أراه الله عمومًا، وخصوصًا فى

هذه الواقعة، فلا يدافع عن المسلم السارق الخائن ضد اليهودى المظلوم، وتنهاه عن أن يدافع عن الخائنين حتى لو كانوا مسلمين ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾.

* * *

﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾

وبعد أن أمر الله رسوله أن يحكم بين الناس بالعدل، أمره أن يستغفره، ونهاه عن أن يجادل ﴿ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ يَخُونُونها بارتكاب المعاصى، أى بنى أبيرق ومن على شاكلتهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ فالله لا يحب من كان مفرطًا فى الخيانة ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ﴾ يستترون من الناس خوفًا من الفضيحة، ولكنهم لا يستترون من الله الذى يسمع ويرى ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ وهم يدبرون بليل تلفيق التهم للأبرياء، وهم يغفلون عن أن الله ﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾.

* * *

﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) ﴾.

تنهى الآية المسلمين من الجدال دفاعًا عن الظالمين، وتذكرهم بأنه إذا دافعوا عنهم فى الحياة الدنيا فلن يكون هناك من يدافع عنهم فى الآخرة أمام الله.

* * *

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) ﴾

تقدم الآيات العبرة، والطريق الواجب اتباعه إذا عمل أحدنا سوءًا بآخر أو ظلم نفسه، فعليه الاستغفار، ومن يستغفر الله بإخلاص يجده غفورًا رحيمًا، ومن يفعل إثمًا، فسوف يحاسب عليه ولن يجديه أن يخدع الناس، فالله عليم حكيم، ومن يرمى إثمه على آخر، فقد جعل إثمه ﴿ بُهْتَانًا ﴾ كذبًا فاجرًا، وإثمًا مبينًا.

* * *

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾

ولولا أن الله تفضل عليك يا محمد بالوحى، وأنار بصيرتك ونبهك للحق ﴿ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ لهمَّ قوم السارق الخائن أن يضلوك فى الحكم على اليهودى، ولكنهم فى الحقيقة قد أضلوا أنفسهم ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ لأنك تقضى بحسب البينة الظاهرة ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ القرآن والحكمة؛ التى هى إصابة الحق فى تقدير الأمور، وفى القول والعمل، وعند الشافعى هى السنة ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ قبل نزول الوحى ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

***

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾.

لا خير فى كثير من كلام الناس فى أمور اللغو، ولكن الخير فى الأمر بمساعدة فقير أو محتاج، أو فعل معروف، أو الإصلاح بين الناس ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ومن يعادى الرسول من بعد أن ظهر له الهدى الذى أتى به، ويخالف سبيل المؤمنين ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ نتركه لهواه وللشيطان، ثم فى الآخرة نصليه نارًا حامية، وذلك هو من تنطبق عليه الآية ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

***

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾

كل ذنب قابل للغفران إلا الشرك بالله، سواء أكان الشرك ظاهراً كعبادة ملائكة أو بشر أو أصنام، أو معتقدات تستبعد الشريعة من الحياة، كأن الحياة لا تصلح بالشريعة، وكأن هناك من أدرى من الله بمصالح المسلمين والبشر ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ ويعفو عن ارتكاب الكبائر والصغائر لمن شاء، وبينت آيات القرآن والسنة أنه يغفر لمن يتوب ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وهل هناك أكثر ضلالاً من الشرك ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ كان العرب فى الجاهلية يعبدون الأوثان، ويسمونها أنثى بنى فلان، كاللات والعزى، والبعض الآخر كان يعبد الملائكة ويسميها بنات الله، والذى أغواهم للإشراك بالله إنما هو الشيطان المتمرد عن طاعة ربه؛ لذلك ﴿ لَّعَنَهُ اللَّهُ ﴾ وقال لربه حين أخرجه من الجنة ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ كيف علم الشيطان أنه قادر على إضلال بنى آدم؟ الأمر الذى جعله يتجرأ بذلك القول لخالقه، هل اكتشف ذلك عندما أنبأ آدم الملائكة بالأسماء مثلما بينت الآية ٣٣ من سورة البقرة؟ أم من قول الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ الله أعلم ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ وقال الشيطان لرب العالمين: سأضلهم عن الطريق المستقيم، وأعدهم وأمنيهم الأمانى الكاذبة، وذلك مثلما خدع آدم بما زعمه عن شجرة الخلد والملك الذى لا يبلى ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ﴾ التبتيك هو قطع آذان الناقة، وهو عادة جاهلية، إذا ولدت الناقة خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً يشقون آذانها ويتركونها فلا ينتفعون منها بشىء وتسمى بحيرة، ثم لا يمنعونها من الماء أو الكلأ، ويظنون أن هذه وسيلة للتقرب إلى الله ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ بالأعراف والقيم الضارة الخارجة عن الشرع ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ لأن مصيره جهنم وبئس المصير، ولن يحيا فى دنياه حياة طيبة سوية. ولكن كيف يغوى الشيطان الإنسان؟ ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ فليس لدى الشيطان ما يقدمه سوى الوعود والأمانى الزائفة والكاذبة ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ بمتاع الدنيا، وفى النهاية ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ لا مهرب ولا مفر من النار.

أمام الشيطان عدة مداخل لإضلال الناس، أوضحها وأقصرها طريقًا أن يقول لهم مباشرة: اعبدونى ولا تعبدوا الله. ولكن لن يستجيب لذلك إلا قلة قليلة. وأمكرها وأطولها

طريقًا أن يزعم لهم أن الله خلقهم، ولكن هم أدرى بشئونهم وبمصالحهم فى الدنيا ـ وهو هنا يخاطب الطمع والجشع والهوى والجهل فى النفس الإنسانية ـ ويقول إن عبادة الله فى القلب فقط، وهو قد ترك للبشر أمور دنياهم. فهو هنا لا ينكر الله الخالق، ولكن ينكر الله الرب. وبين هذين المدخلين مداخل لا نهائية. . منها إزاحة الله بالتدريج عن طريق صناعة شركاء، تتبع كل طائفة شريكًا يزين لها الشيطان قدره وشرعه، ويحتال بالعادات والتقاليد، ليهدم بعد ذلك أسس الإيمان والعمل، أى العقيدة والشريعة.

***

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾

الإيمان قول بعقيدة يصدقه العمل، الإيمان وعمل الصالحات، تلك المتلازمة التى كررها القرآن عشرات المرات ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وقد وعد الله، وهو أصدق القائلين، من آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار، ولكن ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ لن تنالوا رضا الله إذا لم تُصَدِّقوا إيمانكم بالعمل الصالح، بل القاعدة الإلهية التى تقوم عليها الدنيا والآخرة: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ من يعمل سوءًا، سواء من المشركين أو اليهود أو النصارى أو المسلمين، ينال جزاء عمله، ولن يجد وليًا ولا نصيرًا ينفعه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ لا فرق فى الثواب والعقاب الإلهى بين المرأة والرجل، الأبيض والأسمر والأصفر والأسود، ابن المؤمن وابن الكافر، فمن يعمل صالحًا وهو مؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، له جنات تجرى من تحتها الأنهار، فلا شعب مختار ولا شعوب مُستبعدة، و ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فلن يحاسب الله أحدًا، إلا عن عمله، ليس الآباء مسئولين عن أعمال أبنائهم، وليس الأبناء مسئولين عن أعمال آبائهم.

***

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) ﴾

وليس هناك عند الله من هو أحسن دينًا ممن أخلص العبادة لله، ووجه قلبه وجوارحه لله، لا يبتغى إلا رضاه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ والإحسان كما قال (ﷺ) «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه البخارى ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ والملة الإبراهيمية هى إسلام الوجه لله ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل متخذًا الطريق المستقيم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ قال الزمخشرى: [مجاز عن اصطفائه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، والخليل هو الذى يخالك، أى يوافقك فى خلالك].

***

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)﴾

كل ما فى السماوات والأرض وما بينهما لله الواحد الأحد، خلقه، وأحاطه بعلمه وقدرته.

***

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا(١٢٧)﴾

قال الطبرى: [كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئًا، فلما نزلت آيات المواريث فى سورة النساء، شق ذلك على الناس وقالوا: أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال والمرأة التى هى كذلك، فيرثان كما يرث الرجل؟! فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء فانتظروا، فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا: لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بدّ، ثم قالوا: سلوا، فسألوا النبى (ﷺ) فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ يطلبون منك يا محمد الفتوى فى بعض قضايا النساء ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ قل الله يفتيكم، مع ما أنزله إليكم فى أول السورة ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ من حق الميراث وحق المهر ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فالرجل فى الجاهلية تكون عنده اليتيمة تحت رعايته فيُلقى عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يجرؤ رجل أن يطلبها للزواج أبدًا، فإن كانت جميلة عشقها وتزوجها وأكل مالها، ولم يدفع لها مهرًا بالمثل، وإن كانت دميمة منعها الزواج أبدًا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ وما أنزل عليكم فى المستضعفين من

الولدان الذين كنتم لا تجعلون لهم نصيبًا من الميراث ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ الخطاب بالأمر للأوصياء على اليتامى أن يتبعوا معهم قواعد العدل ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فإذا حرصتم على التعامل بالعدل والحق والرحمة مع النساء، واليتامى وخاصة يتامى النساء، والولدان الضعفاء، فإن العليم ببواطن الأمور سيجزيكم خيرًا.

***

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) لَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩)﴾

وإن خافت الزوجة من زوجها ترفعًا أو جفاءً أو إعراضًا عنها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لا إثم عليهما إذا حاولا الإصلاح، والعاقل منهما يبدأ فى التماس عودة الدفء والمودة واستقرار العلاقة الحميمة، والصّلح فى جميع الحالات خير ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ والنفس بطبيعتها جبلت على الشح، أى الحرص، ليس فقط فى المال ولكن فى الهوى والعواطف إلا من رحم ربى ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وإن تحسنوا ـ أيها الأزواج ـ العشرة وتتقوا الله فى نسائكم، فإن الله خبير بما تعملون، وفى الحديث «خيركم خيركم لأهله» رواه الترمذى ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فى واقع الحياة، لا يستطيع معظم الناس إقامة العدل المطلق، الحاكم مع محكوميه، أو صاحب الشركة أو المؤسسة مع موظفيه، وحتى الآباء مع أبنائهم، ولذلك يحث القرآن الناس على السعى والاجتهاد فى إقامة العدل فى كل العلاقات، وعلى رأسها العلاقات الأسرية، وقطباها الزوج والزوجة، أو الأب والأم ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فهذا أمر واجب التنفيذ، ألا يميل الزوج إلى زوجة ميلاً واضحًا، ويترك الأخرى وكأنها معلقة، لا هى بالزوجة المحصنة ولا هى المطلقة التى تأمل فى الزواج بآخر يُعوضها، وجاء فى الحديث «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط» رواه الطيالسى ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فاحرصوا على الصلاح فى معاملة النساء، واتقوا الله فيهن قدر ما تستطيعون، فإذا أحسنتم النية وعقدتم العزم، رحمكم الله وإياهن، وغفر لكم ولهن الهفوات. ولقد خصص رسول الله (ﷺ) جزءًا معتبرًا من خطبة الوداع يأمر فيها الأزواج باتقاء الله فى زوجاتهم.

***

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾

فإذا تنافرت النفوس وعزّ الإصلاح واستحكم النشوز، فليلتمس كلّ من الزوجين ما يعوضه من فضل الله، فخزائن الله لا تنفد.

* * *

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) ﴾

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ تكررت هذه الحقيقة ثلاث مرات لتطمئن المؤمنين، ولتمنع اليأس وتفتح باب الأمل فى وجه الله مالك السماوات والأرض الذى لا يرضى بالظلم، ولا بالجحود، ولا بالفسوق والعصيان ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ جميع الأمم السابقة التى أنزل الله إليها كتبًا سماوية أو أرسل إليها رسلاً وأنبياء ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ اتقوا عصيانه، واتقوا جحود ونكران نعمته ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ فإن كفركم لا يضر الله، وإيمانكم لا ينفعه؛ لأن الله غنى عن خلقه محمودٌ فى ذاته ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ وكفى به وليّا، وكفى به وكيلاً عن خلقه جميعًا ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ فى طرفة عين أو أقل ﴿ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ بدلاً منكم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾.

* * *

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ﴾

إذا أراد المرء ثواب الدنيا وحسناتها بالسلوك فى سبيل الله، فإن الله يمنحه الثوابين: ثواب الدنيا وثواب الآخرة، فهو السميع البصير.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾

وكما أمرت سورة النساء بقيام الأسرة على العدالة، أكدت على ضرورة قيام المجتمع كله على القسط والإنصاف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ اعملوا على إقامة العدل ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ بالحق ﴿وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فلا تنحز إلى نفسك ولا إلى آبائك وأقاربك، بل اشهد بالحق وإن عادت الشهادة بالضرر عليك أو عليهم ﴿إِن يَكُنْ﴾ من تشهدون عليه ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فإن كان المشهود عليه غنيّا فلا تطلبوا رضاه، واشهدوا بالحق، وإن يكن فقيراً فلا تبتغوا مواساته على حساب الحق، والله أولى بالغنى والفقير ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ فلا تحملنكم الأهواء على ترك العدل ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ ألسنتكم عن الحق ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ أو تعرضوا عن الشهادة فلا تؤدوها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)﴾

تعددت أقوال المفسرين فى الآية، فمنهم من قال إنها تخاطب المسلمين، وتدعوهم لزيادة إيمانهم، كما جاء فى الآية ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، أو تدعوهم للاستمساك بإيمانهم، ومنهم من قال: إنها نزلت فى عبدالله بن سلام وآخرين من اليهود الذين قالوا إنهم يؤمنون بالقرآن ومحمد (ﷺ) والتوراة وموسى (عليه السلام)، ويكفرون بغيرهم من الكتب والرسل، فلما نزلت الآية آمنوا بكل ما فيها، وقيل بل نزلت فى أهل الكتاب الذين يجحدون رسالة محمد (ﷺ).

***

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾

الذين يترددون بين الإيمان الظاهرى والكفر، فتارة يلبسون الإيمان بالله، وتارة ينتكسون فيخلعونه، ثم عندما يجدّ جديداً يؤمنون، ثم ينقلبون على وجوههم كافرين ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ فلهؤلاء المنافقين المحترفين لا غفران ولا هداية من الله ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وسيجىء فيما بعد ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾

[النساء: ١٤٥] أولئك ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ طلباً للعزة والمنعة والنصر ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ ومن لم يؤمن بذلك، فكيف يكون مؤمنًا؟!.

* * *

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾

ضعاف الإيمان الذين لا يعرفون قدر كتاب الله وقدر أنبيائه، لا يبالون حين يجالسون المنافقين والملحدين، الذين يهمزون ويلمزون فى القرآن والإسلام فى مجالسهم، فعند سماع بعض آيات القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ فالمؤمن الحق ينصرف من مثل ذلك المجلس ﴿فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إلا إذا انصرفوا إلى موضوعات أخرى وإلا أصبحتم مثلهم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ مثل المنافقين والكافرين الذين سيجمعهم الله فى جهنم.

* * *

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾

دائمًا يتربص وينتظر المنافقون أن تدور على المؤمنين الدوائر، فإن خاب ظنهم وانتصرتم أيها المسلمون سارعوا بالقول ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ إذن، فليكن لنا نصيب فى غنائمكم ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ حظ من النصر عليكم ﴿قَالُوا﴾ للكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نحط بكم ونبين لكم أننا على ما أنتم عليه، ولكننا كنا نُصاحب المؤمنين فى الظاهر حتى نحميكم منهم ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نحميكم من انتصار المسلمين عليكم بطرقنا ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فانتظروا حكم الله المطلع على خباياكم ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ والمؤمنون هم من يؤمنون قولاً وعملاً، ويوقنون بأن الرزق والأجل والعزة بيد الله وحده، وأنه أرسلهم خلفاء له على الأرض ليجاهدوا فيه حق جهاده، ومن يفعل ذلك فلن يترك الله للكافرين عليهم سبيلاً لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

* * *

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ حين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ والحقيقة أن الله هو الذى يخدعهم حين يستدرجهم ويُملى لهم فى الدنيا، ومن صفات هؤلاء المنافقين أنهم إذا قاموا للصلاة قاموا متباطئين ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ ينافقونهم ويتظاهرون بالإيمان ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الكفر والإيمان وبين الحق والضلال، لا يلحقون أنفسهم بالمؤمنين كلية، ولا بالكافرين كلية ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الحق والهداية، وأولئك الذين يضلهم الله هم الذين قال عنهم ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾

يهرول المنافقون وضعاف الإيمان إلى موالاة الكفار، يبتغون عندهم العزة، فهم لم يوقنوا بأن ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ والله ـ تعالى ـ ينهى عن موالاة الكافرين دون المؤمنين ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ تريدون أن تجعلوا لله حجة ظاهرة وقوية ضدكم؟ وهو سؤال استنكارى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ هذا هو مقامهم المعتبر فى الآخرة ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ولن يتعرض أحد للدفاع عنهم أو نصرهم، وقد استثنى رب العزة ﴿الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن نفاقهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ وفعلوا الصالحات ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ لجئوا إليه يطلبون المغفرة والعون والهداية ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أخلصوا لله لا يبتغون إلا وجهه ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وسوف ينالون نفس الأجر ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ الله لا يريد عذابكم، فماذا يفعل به؟ ولكنه لا يريد أن تظلموا أنفسكم ولا أن تظلموا الآخرين؛ فهو فى غنى عن خلقه أجمعين، أما إذا شكرتم ربكم وآمنتم به ﴿كَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ لكم تزكية أنفسكم ﴿عَلِيمًا﴾ بأعمالكم.

***

الجزء السادس

سورة النساء

من الآية ١٤٨ حتى نهايتها الآية ١٧٦

وسورة المائدة

من بدايتها حتى الآية ٨١

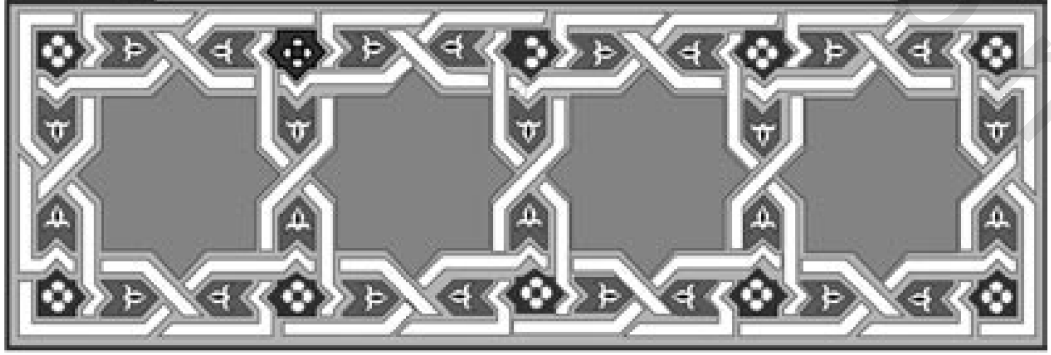

obeikandl.com

﴿ لا يُحبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ منَ الْقَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) ﴾

قال الطبرى: [لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، إلا من ظُلم؛ فيخبر بما نيل منه] أى يخبر بما حدث له، والله ـ تعالى ـ سميع عليم بالظالم والمظلوم ﴿ إن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أما إذا قابلتم الإساءة بالكلام اللين الحكيم، أو تمالكتم أنفسكم وأسررتم فى صدوركم، أو وصلتم إلى درجة عالية كالعفو عمن أساء إليكم رغم قدرتكم على أخذ حقكم، فالله الأقدر منكم، أجدر بالعفو عنكم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾.

***

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾

اليهود يجحدون عيسى (ﷺ) ويقولون إنه ابن سفاح، ويرفضون محمدًا (ﷺ) ويقولون إنه ليس برسول، وإنه ألف القرآن من عنده، وبمثل ذلك يقول النصارى، فمن يتعصب لملته أو قومه ويجحد بقية الأنبياء والرسل، فإنما هو يؤمن بعصبيته وقومه، وليس برسالة السماء خلال سلسلة الرسل، وله عذاب مهين، أما من آمن بالرسل والكتب السماوية، وقال مع القائلين ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فأولئك هم المؤمنون حقًا، وهذا هو الإيمان الحق الذى يستحقون فى مقابله أجرًا عظيمًا من الله الغفور الرحيم.

***

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) ﴾

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ يسألك اليهود أن تنزل عليهم من السماء كتابًا يشهد لك بصدق رسالتك، كما نزلت التوراة على موسى (ﷺ) جملة واحدة في الألواح، فهذا هو سلوكهم من قديم، فقد سألوا موسى (ﷺ) أكبر من ذلك ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي عيانًا بيانًا ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ بل ارتكبوا جرمًا أشدَّ، فحتى بعد أن أراهم الله معجزاته الواضحة، صنعوا العجل وعبدوه ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ وبعد كل ذلك، عفا الله عنهم وجعل لموسى(ﷺ) حجة ظاهرة ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ وبعد أن أخذنا منهم الميثاق بقبول شريعة التوراة، رفعنا فوقهم جبل الطور آية على قدرة الله ليخشعوا قبل أن ينزل عليهم عقابه، ثم أمرهم الله بالتواضع ودخول القرية ـ التي لم يحددها القرآن ولا الحديث الصحيح ـ ﴿ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ ساجدين لله، ولا تنتهكوا العبادة يوم السبت بالعمل والصيد ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أخذنا منهم ميثاقًا قويًا متينًا.

***

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) ﴾

فبسبب نقضهم للميثاق، وكفرهم بالمعجزات التي شاهدوها على أيدي أنبيائهم ﴿ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ثم قولهم قلوبنا مغلفة مصمتة لا تقبل أقوال الأنبياء ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ بل ختم الله على قلوبهم بتكبرهم وجحودهم ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لا يؤمن منهم إلا قلة من الناس ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ بعيسى (ﷺ) ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ حيث اتهموها بالزنا ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ وقد أشاعوا أنهم قتلوا

عيسى ابن مريم (ﷺ) ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ لكن شُبه لهم أنهم قتلوه، بينما رفع الله عيسى (ﷺ) إليه ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى من هم المقصودون بالذين اختلفوا فيه؛ هل هم اليهود؟ أم النصارى الذين اختلفوا فى الذى مات على الصليب، هل هو الجزء البشرى (الناسوت) أم الجزآن الإلهى والبشرى (اللاهوت والناسوت) ؟ أو المسيحيون الذين اختلفوا بصفة عامة فى طبيعة المسيح، والحقيقة أن اليهود لم يقتلوه جزمًا وتأكيدًا ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وأنقذه من أعدائه ولم يصلبوه ولم يقتلوه، والله غالبٌ عزيز حكيمٌ فى تصريف كل أمور الكون ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ وفى آخر الزمان، ينزل عيسى ابن مريم (ﷺ) فيؤمن به جميع أهل الكتاب على أنه رسول الله وعبده، وقال بعض المفسرين: بل المقصود أن من أهل الكتاب من يؤمنون بحقيقة عيسى (ﷺ) قبل موتهم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ يكون عيسى (ﷺ) شهيدًا عليهم، بأنه بلغ رسالة ربه، وأنه عبد الله.

***

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾

وبسبب ظلم اليهود، حرَّم الله عليهم بعض ما كان مباحًا ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ فقد سعوا فى منع كثير من الناس من الدخول فى دين الله[1] ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ فالربا محرم فى اليهودية والمسيحية، ولكن سمحت التوراة التى حرفوها بالإقراض بالربا لغير اليهود[2] ﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ بالطرق المحرمة[3] ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا

---

(١) قال المسيح (ﷺ) لقادتهم من الكتبة والفريسيين، وأكثرهم تابعون لهم، من ضمن ما قاله، إنهم لا يدخلون الجنة، ولا يتركون غيرهم يدخلونها ـ إنجيل متى الإصحاح ٢٣ : ١٣ .

(٢) جاء فى التوراة: أما الأجنبى، فأقرضوه بربا ـ سفر التثنية الإصحاح ٢٣ : ٢٠ .

(٣) وهذا أيضًا وبخهم المسيح (ﷺ) عليه قائلاً: الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تلتهمون بيوت الأرامل . . . أيها القادة العميان! . . . فإنكم تنظفون الكأس والصحفة من الخارج، ولكنهما من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع! . . أيها الحيات أولاد الأفاعى! كيف تفلتون من عقاب جهنم؟ إنجيل متى الإصحاح ٢٣ : ١٣-٣٣ .

أَلِيمًا ﴾ لكل من عصى وخالف أوامر الله . لكن هناك طائفة من اليهود راسخة فى العلم بصيرة بالحق، وكذلك المؤمنون ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أى جميع الكتب السماوية، وهم يحرصون على إقامة الصلاة ـ بإتمام أركانها والتزام ما تأمرهم به وما تنهاهم عنه، وبتذكيرها لهم بالله ـ وعلى دفع الزكاة للمستحقين، هؤلاء يؤمنون بالله، ويعملون استعداداً للقائه فى الآخرة، هؤلاء جميعًا ﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

* * *

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾

هذه الآيات ترد على من سألوا الرسول (ﷺ) أن ينزِّل عليهم كتابًا من السماء، فرد الله عليهم بأنه أوحى إلى محمد كما أوحى إلى إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ وهم أولاد يعقوب وأحفاد إسحاق وإبراهيم، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ الزبور اسم الكتاب المنزل على داود، وزبور تعنى مكاتب أو كتب ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ وأوحينا إلى رسل آخرين، منهم من قصصنا عليك من رسالاتهم، ومنهم من لم نخبرك بشىء عنهم ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ كلمه بغير وسيط ؛ لذا يقال عن موسى (ﷺ) «الكليم» ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ فجميع الرسل بشروا الصالحين بالجنة، وأنذروا الكافرين والمنافقين بالنار ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ لأن الله لا يؤاخذ الناس قبل بعثه الرسل إليهم ـ وجاء فى سورة الإسراء : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ يبين العقيدة والشريعة ـ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ فى انتقامه من الكافرين ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى تصريف شئون العالمين .

* * *

﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾

بعد أن بين الله لمحمد (ﷺ) أن اليهود الذين يطلبون منه أن يصعد للسماء ويهبط إليهم بكتاب؛ قد سألوا موسى (ﷺ) أكثر من ذلك، وجحدوا الآيات البينات التى جاء بها، فهم يسألون جحودًا وتعنتًا، ولا يسألون طلبًا للإيمان والتثبيت، فأوحى الله لرسوله أن الشهادة الحق إنما هى شهادة الله، فهو منزل الكتاب، وهو خالق الكون، كذلك تشهد الملائكة، وإن كانت شهادة الله هى الفاصلة والكافية. أما الذين جحدوا وظلموا أنفسهم، فقد حرموا أنفسهم من مغفرة الله وهداه، وليس لهم إلا جهنم خالدين فيها، وما أيسر ذلك على الله.

***

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾

الآية شهادة من الله على رسالة محمد (ﷺ) التى جاءت بها إليهم حقًا من عند الله، وجاءت بالحق ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ وإن أصررتم على العصيان والإنكار، فإن الله غنىٌ عنكم ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو عليم بخلقه حكيم فى قضائه.

***

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ والغلو هو الإفراط والتزيد، والغلو يبعث على التعصب ويُبعد عن الحق، ولقد غلوا فى حقيقة عيسى ابن مريم (ﷺ)، فمنهم من أنكره بالكلية وقال إنه ابن زنا، ومنهم من اعتبره إلهًا يُعبد من دون الله، ومنهم من اعتبره ابنًا لله، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ لا تصفوا رب العالمين بأنه ثالث ثلاثة، أو ثلاثة فى واحد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ وكلمته هى كن فيكون بأمر من الله ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فهو ذو روح من أمر الله مثل كل الأرواح البشرية التى خلقها

الله ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فآمنوا بقدرة الله على إرسال الرسُل ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ لا تقولوا الآب والابن والروح القدس إله واحد(١) ﴿ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ كفوا عن ذلك ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ تنزه الله الأحد عن أن يكون له ولد، وكل ما فى الكون هو من خلقه، وكفى به مدبراً لملكه.

* * *

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) ﴾.

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ لن يأنف أو يتكبر المسيح عن عبوديته لله(٢) ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ولن تستنكف الملائكة المقربون أن تكون عبيداً لله ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله الواحد الأحد فلن يُفلته ذلك من يوم الحشر ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ يوفى الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثوابهم، ويزيدهم من فضله ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ولن يجدوا من يتولاهم أو ينصرهم.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥) ﴾

جاء الإسلام لكل الناس بعقيدة وشريعة، بينها القرآن وفصلتها سنة الرسول (ﷺ) تنير للبشر الصادقين سبيلهم فى الدنيا إلى الآخرة، تطمئن لها القلوب، وتركن إليها الفطر،

(١) جاء فى إنجيل يوحنا: والحياة الأبدية هى أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذى أرسلته يسوع المسيح ـ ١٧ : ٣ .

(٢) فى إنجيل متى، أجاب المسيح عمن لقبه المعلم الصالح قائلاً: لماذا تلقبنى صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا الله ـ ١٩ : ١٧ وجاء فى إنجيل مرقس: وأما ذلك اليوم وتلك الساعة (يوم الحساب) فلا يعرفها أحد لا الملائكة فى السماء ولا الابن إلا الآب ـ ١٣ : ٣٢ . وفى إنجيل يوحنا: أنا إنسان كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله ـ ٨ : ٤٠ .

ويعقلها أولو الألباب. فالذين آمنوا واعتصموا بالله، فثوابهم رحمة الله وفضله فى الدنيا والآخرة ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ ينتهى بهم إلى جنات الخلود فى الآخرة.

***

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾

يسألونك يا محمد فى ميراث الكلالة. والكلالة من مات ولا والد له ولا ولد، وجاء ذكر ميراثه من قبل فى الآية الثانية عشرة من السورة، ولكن الفارق بين الحالتين، أن الإخوة والأخوات فى الآية الأولى إخوة لأم، بينما فى الآية الحالية هم إخوة لأب؛ لذلك ترث الأخت نصف ما تركه الأخ، وهو يرثها، فإن كانت هناك شقيقتان، فلهما ثلثا ما ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً، فيتقاسمون الميراث، ويكون للأخ ضعف نصيب الأخت، يبين الله لكم سبيل الهدى والرشاد حتى لا تضلوا، وهو عليم بمصالحكم وبكل الأمور.

***